

ألم عطا الله

دار العين للنشر



غزب مال

ماله يحكه جرمون
في السيرة الهلالية

رواية

غَرْبَ مَالٍ

ما لم يحك به جرمون في السيرة الهلالية

أحمد عطالله

الطبعة الأولى / ١٤٣٩ هـ . ٢٠١٨ م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ مصر بهار - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٣٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٣٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: غادة خليفة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٧/ ٢٧٥١٣

I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 484 - 4

غَرَّبَ مَالٌ

ما لم يحكه جرمون في السيرة الهلالية

رواية

أحمد عطاالله

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

لفهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

عطا الله، أحمد

عَرَبٌ مَالٌ: ما لم يحكه جرمون في السيرة الهلالية، رواية/ أحمد عطا الله.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٨

ص ١ سم.

تدمك: ٤ ٤٨٤ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢٧٥١٣/ ٢٠١٧

الجزء الأول^(*)

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

(*) الرواية من جزئين، يُنشر الجزء الثاني تباعاً.

حلو يا نبي
كام حلو مدحك،
أنا الـ شبكني غرامك
طول العمر، أنا سيرتي مدحك
حزين الـ ماشافش مقامك

قَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ لَهُ بَابَ الْقَصْرِ، حَذَّرْتَهُ الْخَادِمَةُ، مِنْ أَنْ يَكُونَ عُقْدَهُ
مَزِيْفًا، فَأَكَّدَ لَهَا أَنْ فِي الْعَرْضِ فُرْصَةً.

فَتَحَّتْ مِي لَجَعْفَرِ الدَّلَالِ، وَطَلَبَتْ أَنْ تَرَى الْعُقْدَ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ
تُخْبِرَ سَيِّدَتَهَا بِعَرْضِهِ.

كَانَ مُشْغَا، يَخْطِفُ الرُّوحَ وَيَحْكِي الْقِصَصَ، بَكَتْ مِي فَوْرَ أَنْ
رَأَتْ الْعُقْدَ، نَسِيَتْ الدَّلَالَ وَالْبَابَ وَسَيِّدَتَهَا، وَرَاحَتْ تَسْأَلُهُ كَمَا يَسْأَلُ
النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

- آآه، كَيْفَ حَالُكَ؟ كَيْفَ حَالُ السَّمَاءِ؟ كَيْفَ حَالُ السُّلْطَانِ حَسَن؟
كَيْفَ حَالُ الْأَمِيرَةِ الْجَازِيَةِ وَقَاضِيِ الْعَرَبِ؟ قُلْ لِي مَا الَّذِي أَتَى بِكَ
إِلَى هُنَا، أَسْرَقْتَ؟، أَمْ تَعْرُضُ أَصْحَابَكَ لِضَيْقِ فَبَاعُوكَ؟، أَمْ قُتِلَ
الْأَسْمَرُ سَلَامَةً فَأَخَذُوكَ؟

تَعْرِفُهُ، قَابَلْتَهُ مِنْ قَبْلِ فِي بَنِي هَلَالٍ، حَيْثُ عَاشَتْ، حَيْثُ أَكَلْتَ

وشربت وصاحبت وعملت وحلمت، وقرأت الودع للنساء. كانت تبكي نفسها، حياتها الأولى.

- يا أيها القحط اللعين، ماذا تفعل في الناس؟، لماذا تبعدهم عن أوطانهم؟، لماذا تفرق بينهم وبين أرواحهم؟

في أيام القحط الأولى، مر تاجر على بني هلال، على سمع قديم لمكانتهم، ولم يكن يعرف بأمر القحط، بأن الأرض ترفض الزرع، مر ضيفاً طالباً حقه في الضيافة، ولم يجد ما يعطيه له السلطان حسن.

كانت مي واقفة على باب الخيمة، حين نظر إليها التاجر، وفهم السلطان المغزى: "إذا كنت تستطيع أن تجعلها تشرب وتاكل، فخذها مني هدية".

وأخذها، رافقته مي، من بلد لبلد، وحين اختلفت معه، تذكر أنه تاجر، فباعها في سوق الرقيق. ومن سوق في الشرق لسوق في الغرب، وصلت تونس، كانت من نصيب قصر عزيزة بنت السلطان.

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

أثناء نزولها من أعلى، سمعت عزيزة، بكاء مي، حين نزلت
أكثر.. رأت دموعها، لماذا كل هذا النحيب؟

- بنو هلال.

بنو هلال، يا لهم من قصة يا مي، دخلت بها هذا البيت، فأصبحت
تسكن الجميع، مدت مي يدها بالعقد، توقفت عزيزة.. شيء تحرك بداخلها،
قلبها يدب، شيء ما مسه، فتركه غريقاً في شوق غامض ومجهول،
وقبل أن تسرقها حالتها، سألت الدلال عن صاحب العقد.

- فارس جميل.

- يشبه من في تونس؟، يشبه والذي السلطان معبد؟، يشبه
الفارس الزناتي؟ أم يشبه الأمير علام؟!

- (يهز رأسه)، لا يشبه أحداً من الرجال.

- لا يشبه أحداً من الرجال! صفه لي يا دلال.

- شعره كالحرير، على قورته رسم هلال، عيناه.. واسعتان
كعيون الغزلان، خشمه كما خاتم سليمان، أسنانه كما لؤلؤ يحبس
مرجاناً، ذقنه كما لوح صابون، كتفاه كقرعي عسل، بطنه مثل
عجين خمران.

يا سيدتي، إن رأيته، تتركين قصر ك بكل ما فيه.

تندفع مي ناحية عزيزة، فرحة.

- هو ذاته، يونس.

- يونس؟!!

- نعم، جميل بني هلال.

أي قدر ينتظرك يا عزيزة، أي قدر ذلك الذي يداعب روحك.

- آتِ به يا دلال، إلى هنا.

- لكنه يا سيدتي، اشترط عليّ ألا يدخل القصر، حتى أتى له

بالمال.

- ستأخذ ضعف سمسرتك، سواء اشتريت منك أم لم اشترِ. أنت

تاجر شاطر، والتاجر الشاطر يجيد بيع الكلام.

كانت في عيني عزيزة، رغبة جارفة، غامضة ومجهولة.

راه الدلال، واقفاً في تعجل، فاندفع ناحيته.

- فصل عُقدك بأموال كثيرة، ولأني رجل كبير، لم يَأْتَنِّي أهل

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

القصر على المال، فلتأبِ معي وتأخذ ثمن عُقدك، تعال وأحمل
أموالك.

- ألم أقل لك من البداية، ألا تجوب بي البيوت والشوارع، وأنني
لن أدخل قصورًا.

لا أحب القصور، لم أتمن أن أعيش فيها قط، تقبض قلبي،
يقلقني بغي الكمال، ومع ذلك أنا في هذا القصر.

بالأمس، حين هاتفنتني، حدثتني عن كارلس أكوستا:

- هو الأكثر شهرة بين أبناء جيله، خرج من هافانا ليُشكل
مصدر إلهام للجُمهور وفناني الرقص المستقبليين، ظل حياته يتنقل
كضيف شرف على أشهر الفرق العالمية، حصد الجوائز، لديه
شغف كبير للنجاح، ما زال يشارك فرقة الباليه الملكية حتى الآن،
أحبه العالم من "تكورورو"، العرض الذي استوحاه من سيرته
الذاتية، حققت مبيعات تذاكره على مسرح "ساليرز" بلندن أرقامًا
قياسية في 2003.

بنلت اليوم مجهودًا لأحصل على تذكرتين لعرضه الجديد: "كارلوس
أكوستا والأصدقاء".

- كيف عرفتِ كل هذه المعلومات؟

وصلت متأخرًا، نسيت نفسي، فجريت في الردهة، حتى انتبهت
أن خطواتي غريبة، قدماي تغوص في السجاد، عيناى تتنقل بين
الضيوف.

الأحذية اللامعة، سيقان السيدات، صدورهن الرطبة، الفساتين،
الروانح التي تفوح كالموسيقى، البدل السوداء، البيبيرونات، بشرات
الرجال، طريقة مشيهم، الأسنان البيضاء، التي تبتسم، تبتسم فقط،
لا تضحك.

على الجانبين، لوحات فنية، تعكس صورتي، ككادرات فوتوغرافية
ألتقطت خطأ، أو ألتقطت سريعًا، لوجه مسمر مرهق، صلح يداهم،
أسنان صفراء أنهكها الدخان، عيون ضيقة حزينة، الجاكيث الديرتي،
الذي قال بانعه إنه صُنع ليكون متسخًا، يليق على الجينز، من الأفضل
أن يكون تحته تي شيرت، لم يقل لي إنه غير مناسب للقصر، مع
أن الجاكيث وأنا غير مناسبين للقصر.

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

- ما الذي أتى بي إلى هنا؟!!

وجدتها منتظرة، بجوار رجل ملامحه أوروبية، لم تقل لي إن هناك صديقاً آخر سيحضر العرض.

حين وقفت أمامها، بعد تحية واعتذار عن التأخير، انحنى الأوروبي قليلاً بابتسامة توحدت مع وجهه:

- تفضلوا.

اجتاز بنا باب، يليه ردهة جانبية، في نهايتها وقف مهنّب آخر على باب العرض. أخذ الدعوتين، وقال بلطف، قبل أن يفتح الباب:

- *Welcome, the show started 10 minutes ago, everyone is silent inside, I wish you a pleasant viewing.*

الصالة في ظلام ناعم.

على خشبة المسرح، غبريلا لوغو^(*)، تدور برشاقة حول كارلس أكوستا، الذي بدأ ساكناً، صامتاً، حتى تحرك فجأة ليلف يده على وسطها، انجبت، انحنى، قابل وجهه وجهها.. بقي قليلاً،

(*) غبريلا لوغو، راقصة باليه من مواليد هافانا 2002، عضو في "فرقة البالية الكوبية".

تحت بقعة ضوء، عيناها في عينيه، علت الموسيقى فجأة، فغيرت من واقع الأمر.

ضج المسرح، وبلكونته، بتصفيق متناغم، وقوي.

انتهى الفصل الأول ولم أفهم شيئاً. انتهى الثاني، ولم أفهم شيئاً.

قلت لها هامساً، مهوئاً الأمر على نفسي: "كنت أتوقع أداءً أفضل لكارلس!".

ابتسمت، وقبل أن تلتفت لي السيدة التي أمامي، فأتوقف عن الكلام، أكملت وأنا أحدث نفسي: "من الخطأ أن تتم دعوة الصعابدة لحضور عرض باليه!".

نُست على قدم رجل ضخم وأنا أتحسس طريق خروجي، حدث قليل من فوضى.

لا أريد البقاء هنا. لا طاقة لي للتأمل أو الاستكشاف، ذهني مرهق، أريد أن استنشق هواءً، هواء ربنا.

- لماذا لم تكلمي حياتك في فرنسا، مع أن فيها قهوة جيدة مما تحبين؟

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنت

- كل روح معلقة في المكان الذي ولدت فيه، في معرضي الوحيد الذي قدمته في باريس، رأيت دهشة كبيرة في عيون الحاضرين، تجاه المساحات الشاسعة في لوحاتي، وكأنهم يقولون لي لماذا لا ترسمين قصر بابيس أو شاتو دي تشامبور أو مونت سانت ميشيل؟، لماذا الصحراء؟

روحي معلقة هنا.

أما القهوة، فيمكننا أن نعود ونشربها في القصر!

- نشربها في أي مكان، إلا القصر.

- القصر الذي تراه هذا، حتى تصله أمامك سبعة أبواب، نحن سندخل من باب السور فقط، لتأخذ ثمن عُقدك، وتعطيني عمولتي، وليكن في معلومك أنني لن أتنازل عن العُشر، هيا يا رجل، قبل أن تغيب الشمس.

وما بين تردد داخلي، وتشجيع من جعفر الدلال، ترك يونس قاعوده، دخل الباب الأول من القصر، مسحوبًا لقدره، في وقت كانت فيه عزيزة تدخل حجرتها، أشار الحارس إلى الباب الثاني، وعزيزة أمام المرأة تتأمل وجهها وجسدها.

يغيب الدلال، في صورة أخيرة له، كان يتلقف فيها كيساً من مال، ليبقى يونس وحده.. يتقدم مع الحارس نحو الباب الثالث، وعزيزة في ملابس أخرى زاهية، يمر من الباب الرابع، وهي تُشعل البخور، يمر من الخامس، وهي تضع الكحل.

يمر من السادس، يتذكر كلام دياب الزغابي، حين تأمله ذات مرة: "لم تنجب بنو هلال فتى جميلاً مثلك، احترس: للجمال لعنة، لا تترك صاحبه"، وهي تدور حول نفسها أمام المرأة، تشدو للحب. يجتاز يونس الباب السابع، وعزيزة تجتاز جناحها، تأمر الحارس بالآي خرج أو يدخل أحد إلى القصر.

عزيزة ويونس.

كمسحورة، وقفت تتأمله، تعلقت عيناها في عينيه، قورته، أنفه، شعيرات ذقنه التي لم تحلق من قبل، شفثيه الوردتين، كانت تننفس بسرعة، بدت ساخنة: "تعال أيها الجميل، ساكسي الجمل الذي أحضرك إلى هنا حريزاً".

لم يتحرك يونس، مذهولاً، جبينه يتصبب عرقاً، مدت يدها إليه: "تعال، سلم عليّ، من اليوم لا يوجد لي غيرك أحباب".

كلاهما لم يكونا على الأرض، وكلاهما لم يكونا في المكان

نفسه، هي تدور في سماء الشهوة، وهو يدور في سماء القدر.
تقدمت، أمسكت بيده.. واصطحبته إلى سلام القصر، سعدت به
سلمًا.. عتباته من زجاج، وهي تسأله: "من الأجل أنا أم الجازية؟"،
وكانه لم يسمع، يتلفت للقصر غير مصدق وجوده فيه، لا يجيب،
مرت به على سلم ثانٍ عتباته من سن الفيل، وثالث عتباته من الفضة،
سبعة سلام مختلفة مر عليها يونس، مغيبًا تعصف بعقله مشاهد
قديمة، ضحكات إخوته، السماء تعطيه عُقدها، الجازية تحتضنه،
أخوه حسن السلطان يضغط على يديه وهو يودعه، رمل خاله،
الغربان الأربعة، القدر، الله.

- أريد أن أتوضأ، أنا في حاجة لأن أصلي.

- مالك والصلاة، أنت متعب وأنا مثلك، تعال.. نستريح.

تلسعه أنفاسها، بات أنفها بجوار أنفه.

- تعال يا يونس، نلعب بالماء، أريد أن أقيس طولتي مع طولك.

- اظن أنني الأطول.

مضى وقت طويل، ونحن نثرثر في أي شيء، من كارلوس

أكوستا إلى: أي منا أطول من الآخر؟

الهواء طلق، منعش، الحديقة شاسعة، خالية من الناس، تبدو لا نهاية لها، بين حين وآخر، يصانفنا رجل أمن، ونحن نتنقل ما بين كتلة ظلام وبقعة نور.

يتقدم ناحيتنا رجل، يده اليمنى خلف ظهره، ابتسامته تشبه ابتسامة رجال الأمن.. هل هناك خطأ ما قد حدث.

- معذرة.

قالها، ثم قدم بوكيه ورد فاخرًا.

- اشتريته منذ قليل، أعتقد أنكما أكثر حاجة مني إليه.

هز رأسه، وانسحب.

ورد!

- هل تؤمن بالأقدار؟

- عملت لسنوات على أن أكون مبيض محارة، غير أن هناك مشهراً غير من الأمر، وقفت فيه أمام مكتب شؤون الطلاب بكلية الآداب بسوهاج، سخر مني الموظف حين سألته عن كيفية استكمال

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

أوراق الالتحاق، أشار إلى جداول امتحانات الترم الأول التي تكسو الجدران، تركت الشباك، ودخلت عليه حجرة عمله، وأمامه بالضبط، قلت له: اختر لي القسم الذي التحق به، لأنني لا أعرف! هو من اختار لي أن أدرس صحافة، أنا لم أدخل.

- دون رغبة منك؟

- تولد بعد ذلك الرغبات.

يزيح وجهه بعيداً حتى لا تتمكن شفتاها من شفتيه: "تركت خالي وإخوتي في الحدائق، على أطراف المدينة، جانعين، خالي، سيسأل رمله، وسيعرف مكاني".

فاقت بابتعاد وجهه عن وجهها، لتنتبه إلى أمر ما.

ندت على حارسها، طلبت منه أن يأتي الآن بالبناء والمعماريين، ليحيطوا جناحها ببحر ماء، يلقوا في مياهه الملح والسمك وهلب سفينة.

لا تقلق يا يونس، سأبطل لك الرمل.

طلبت من خادمة المطبخ، أن تُجهز طعامًا، يذهب به عبد إلى الغرباء، خارج سور المدينة، على ألا يجيب عن أسئلتهم.

لا تقلق، سأذهب عنهم الجوع.

- حين يذهب لهم طعامك سيعرفون مكاني، وسيهدمون هذا القصر على من فيه.

تضحك عزيزة، تعاود الاقتراب منه: لا يهم، طالما أنا وأنت معا.

كل شيء يقول إننا لا يمكن أن نكون معا.

لم يكن يومًا سلسًا على الإطلاق، بدأ متأخرًا، صاحبي من بدايته سوء توفيق في العمل، كان عليّ التحرك طوال ساعاته بايقاع سريع، وحين انتهى النهار ارتبك الإيقاع، قضيت ساعتين جالسًا في التاكسي، ما بين الملل وهواجس الاستعجال.

أعربت لي في التليفون أن هناك أمورًا عدة، أخرت تحركها، كلانا إذا في الطريق.

وصلت، حين لم يعد للمحمول قيمة، بعد أن نفذت بطاريته.

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

راجعت محفظتي الصغيرة، ورقة وحيدة، 100 دولار، هو كل ما أملكه، إنجليزية السائق الهندي كانت سيئة، لم تجعلني أفهم شيئاً، سوى ما طالبني بدفعه، 120 دولاراً، حين وجد على وجهي الامتعاض، أعطاني فاتورة.

المكان صاحب، حول النافورة الآن، ما لا يقل عن 100 ألف بني آدم.

لأعد، قبل أن ينتصف الليل فتتعد العود. في النهاية، معها سائقها، وسيارتها الجاغوار، انتظاري لا يفيد، لن أعبث في دولاراتي الزهيدة، لن أشتري شاحناً، لأبحث عن أقرب محطة أتوبيس، وأغلق صفحة هذا اليوم، وأبدأ غداً جديداً مع يوم جديد.

أعود، هكذا، ببساطة.

نعم ببساطة، لدي من الأمور ما يكفي لملء عقلي، سكريبت حلقة البرنامج في حاجة لتعديل، وأنا في حاجة للنوم.

تأجل الميعاد من قبل، أنا من طلبت ذلك، أنا من اخترت الوقت، أنا من اخترت المكان، أسأت الاختيار، أعترف، غير أن هذا ليس كافياً، لأن أظهر كمستهتر، لا يحترم مواعيده.

ما يدفعني لذلك؟ سأقضي ساعتين مع فتاة جميلة، مثقفة، تنفلسف على بعضنا، نثرثر، نشرب القهوة، وبعد أن أدفع الحساب، نقف لتبادل المجاملات المعتادة، لا جديد في الأمر، في النهاية هي ستعود من حيث جاءت، ولن يبق معي سوى مشاكل المزعجة، وقوع صدف جميلة، لا يعني تكرارها.. تصرف بحكمة يا رجل.

تتصارع داخلي الأفكار، وأنا أمشي، أتطلع في وجوه الناس، كئانه.

سأعود.

انتظر،.. لا تعود.

لمحتها من بعيد، ظلت عيناى معلقة عليها وأنا أعبر بين الناس مردداً كالرايو sorry، رأنتي، نعم تراني، تشير إليّ، تعتذر لامرأة داست على قدمها، سارعت وأسرعت.

فتحت ذراعها، تعانقنا، علا أصوات الناس من حولنا، يصفقون: أووووووه.

كانوا يلتقطون الصور، مع النافورة التي انطلقت منذ قليل.

- ما هذا؟، ومن أنت؟



لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

- في طفولتي، كل مكان كان مرسمي، أهداني أبي جدران بيتنا،
لأشخبط، قاومت أمي الفكرة في البداية، ثم استسلمت للأمر.

قدري أن يكون "أبي" أبي، فاستمر في الرسم، وقدري أن تكون
"أمي" أمي، فأعود موظفة، وقدرنا أن نلتقي.

- كنت أفكر منذ لحظات، انني لست من مثقفي الأحضان.

- ارواحنا هي من تعانقت، الأرواح هي من ترسم، وهي من
تكتب، وهي من مكنتنا من التواصل من قبل في لبنان، وهي من
صنعت المشهد السابق.

- ليس لدي مشاعر معينة، يمكنني التعبير عنها الآن، ربما،
سوى أنني جائع.

من بعيد، ظهر عبد حاملاً صينية كبيرة، مغطاة، مقبلاً، كان أول
من رآه مرعي، فلفت انتباهه أبي زيد، أنزل العبد الصينية أمامهم،
نزع البشاكير، طعام شهوي، مرعي ويحيى يقتربان منه، وقبل أن
تصل أيديهما إليه، يشير الخال بالانتظار، ليسأل العبد: "من أين كل
هذا يا خال؟".

لم يرد العبد، كرر أبو زيد سؤاله، مرةً واثننتين وثلاثًا، والعبد كأنه لم يسمع.

- احمل طعامك وعد به من حيث جنت.

يونس حائرًا على ظهر سفينة في بحر مالح، مليء بالأسماك. يعيد أبو زيد سؤال رمله وودعه مرة أخرى، فيحصل على الإجابة نفسها، أي سفينة هذه التي عليها؟ أي بحر هذا الذي تمضي فيه؟ أي مصير ذلك الذي يعيشه يونس؟

حين وصل العبد إلى القصر، صادفه أصدقاؤه من العبيد، أخبرهم بأن الضيوف رفضوا الأكل، فطلبوا منه أن يترك لهم الطعام، فهم جوعى.

حمل العبد الصينية إلى داخل القصر، وحين اتجه إلى المطبخ، شاهدته عزيزة من أعلى، فأوقفته، قالت ليونس الواقف بجوارها: "يبدو أنهم جوعى".

ينظر يونس إلى الصينية:

- لم يأكل من هذا الطعام، لا خالي ولا إخوتي.

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

تتنظر له في تعجب.

- الطريقة التي أكل بها هذا الطعام، لا تليق بأحرار.

أشارت عزيزة للعبد بأن يمر، في نظرة غضب، عامّة لا وقت الآن لمن أكل ومن لم يأكل، بين يديها ما هو أهم، يونس.

Aziza Sultan

Liked since augut 31,2015

08-31-2015,10:32 pm

استاذ أحمد، مساء الخير

كاتب رواية اسمها مريم؟

أين أجدها؟

أهلاً وسهلاً،

من أي بلد حضرتك؟

أنا الآن في باريس؟

أمامك خياران، إما أن تُرسلني لي تأشيرة،
وحجز طيران، على أن أت لك بعشر نسخ،
أو تُرسلني عنوانك،
لأرسل لك نسختين فقط، عبر شركة شحن.

Aziza Sultan

Feb 7, 2016

مرحبًا أحمد،

هل أنت في بيروت؟

كنت متعجلاً، عقلي مشغول بترتيب الشنطة، هاجس كل سفر،
فتحت باب غرفة الفندق، ألقيت الملابس المعلقة بالدولاب على
السريير، فأعلن الهاتف عن وصول رسالة جديدة.

بعد 20 دقيقة، كنا معا في مقهى "تاء مربوطة".
- كيف عرفت هذا المكان؟

لدي أمل أن أعود الطفل الذي كنته

- كنت هنا صباحًا، أجرينا لقاءات تلفزيونية، مع بعض الفنانين
والمثقفين، عن شارع الحمراء. وأنتِ ماذا تفعلين في لبنان؟
- حضرت معرضًا للوحات رفيق شرف^(*)، وقررت أن أبقى
قليلاً بصحبة بيروت، أي يوم تُغادر؟
- الثامنة صباحًا ساكون في المطار.

قاطعنا النادل برفق، فطلبنا "المازا". قدمت لها نسخة كتابي.
تبدو كطفلة مع الكتب.

- كنت أفكر قبل قراءتي لرسالتك بدقائقي، أن هذه النسخة، ستعود
إلى مصر مثلما جاءت.. وها هي اختارت أن تبقى معك. أتمنى أن
يُعجبك ما فيها.

شكرتني، حين كان النادل يضع البيرة. فشكرت النادل.
- من أنتِ؟

- قضيت ليلة أمس، وأنا أسأل نفسي سؤالك: من أنا؟
بالأمس أكملت الأربعين، بالمناسبة أحب أن أعلن عن عمري
دائمًا، رسميًا أنا موظفة في إدارة التخطيط والمتابعة، بإحدى

(*) رفيق شرف، مصور ورسام لبناني، من مواليد بعلبك 1932، نال عدة جوائز
وأوسمة منها الاستحقاق الفضي، توفي في يناير 2003.

الدوائر الحكومية، لا أفعل فيها شيئاً عملياً سوى البصمة، وأرسم، قضيت عاماً من أجل الرسم في باريس، قبل أن أعود لقواعدي، قل.. موظفة تحب الرسم. لم يعد لها رصيد إجازات، تسافر لتحاول أن تفهم الحياة. ومن أنت؟

- مثلك، موظف لا يمتلك رصيد إجازات.

انصرف إلى العزلة أحياناً، لأحاول أن أفهم ذاتي، وأذهب إلى العمل والضجيج ودوامات الحياة أحياناً، لأحاول أن أفهم العالم. وما بقي بين المنطقتين، أجلس لأكتب.

اقترحت أن نذهب إلى مسرح المدينة، هناك فرصة لمشاهدة عرض جديد، وقفنا نتأمل عامل المسرح وهو يعلق صورة لصباح، في الصندوق الزجاجي، ضغط على زر الكهرباء المجاور، فكشف النور عن ضحكة صباح المبهجة.

تزايد نقر الأمطار على الأسفلت، بشكل مفاجئ، حين عرفنا أن العرض تم تأجيله.

تمشينا قليلاً، أسرعنا، جرينا تحت المطر، العاشرة مساءً، معظم المحال أغلقت أبوابها، محل صغير، إضاءته خافتة، ظهر من بعيد، bobo، مدهونة حوائطه بالصحف، في الخلفية سعاد ماسي تغني "أتوحشتك"، لم يكن في المطعم سوانا..

ثرثرنا.

حتى أشار الشاب لساعة الحائط، الثانية عشرة منتصف الليل.
علينا الرحيل.

- لماذا لا تبقى يومين إضافيين في بيروت؟
- ولماذا؟

- معي دعوتان، لمسرحية جورج خباز "مع الوقت يمكن" (٥)،
ارسل لي تيكيت الطائرة الآن، ودعني أرتب لك الأمر، يمكنني أن
أعود معك إلى الفندق، لنمد...
قاطعتها:

- انتظري، لا يمكنني أن أتخلف عن زملائي، ثم إنني وعدت
ابنتي أنني سأمر عليها في المدرسة غداً، لنعود معاً إلى البيت.
سعيد بمقابلتك، كان وقتاً لطيفاً، من يدري؟، ربما نلتقي مرة
أخرى.

- كيف لي أن أتركك وقد حلمت بك، وشاغلنتني صورتك ليالي

(*) "مع الوقت يمكن" مسرحية للمؤلف والمخرج جورج خباز، عُرضت على
مسرح "شاقو تريانو" ببيروت 2015.

طوال، فانتظرتك، سنوات مرت وأنا أنتظرك، وحين تجيء وتقف بين يدي أتركك!، كيف أتركك؟

نحن مع بعض الآن، وحدنا، انظر غرامي، انظر حبي، انظر جسدي، انظر وجهي، يقولون إنه يشبه القمر، سنعيش معاً، سنقضي الليالي معاً، ستبقى في حضني، سانسبك نفسك، ستكون لي كل شيء.

تمسك بيده.

- تعال أريك القصر، الذي سنعيش فيه، بناه لي والدي، السلطان معبد، طوبة من اللؤلؤ وطوبة من المرجان، بنى لي شباكاً ناحية الشرق.. أرى منه الشمس قبل أن يراها التونسيون، وبنى لي شباكاً من الغرب.. أشاهد منه القمر كامل الأوصاف، وبنى لي شباكاً قبلنا.. أعرف منه بداية الشهر وعدد الأيام، وبنى لي شباكاً بحرياً.. هواه كخمر يُسطل اليقظ ويوقظ السلطان، تعال لأريك الحمام.

تعال يا يونس، أنا أحبك يا فتى، أحبيتك قبل أن أراك، وأحبيتك وأنا أراك.

وفي لحظة ما غامضة وقوية. قال يونس:

- ربما كُتِبَ لي أن أقضي ما بقي من عمري هنا، وهذا لا أملكه. غير أنك، لن تنالي ما تريدينه مني، ما بقيت، وهذا أملكه.

يُسمى الهالتي سلامة

معالجة للحلقات من الأولى إلى الخامسة

أحببت قصة عزيزة ويونس.

وأحببت الهلالية.

لم يكن علي جرمون (1950 - 2008)، راويًا عاديًا، كان متمرّدًا. أخذ ما أعجبه من السيرة، كما تروى في الصعيد، وراح يؤلف عليها.. قصصًا وأبطالًا وشخصيات جدًّا، وخطوطًا درامية لم تكن موجودة من قبل.

جرمون لم يكن أمينًا في نقله للملحمة الشعرية العظيمة، كما فعل الحكائيان الشاعران جابر أبو حسين أو سيد الضوي، جرمون لم يؤمن بالانتماء إلى نص واحد لتلك الرواية الشفوية المتواترة، مجهولة المؤلف.

جرمون كان كذابًا.

في تسعينيات القرن التاسع عشر، اهتم الشاعر والروائي الإنجليزي، أوسكار وايلد، بتلك القضية، حَزَّ في نفسه ما أسماه "انحطاط الكذب

في الفنون"، فقلاد دعوة لإحياء "فن الكذب الذي أضاعه أهله".
 إتيان رأي قال: "الكذب خلق"، واستعمل العرب "اختلق" في المعنى
 ذاته، قال شاعرهم: من كان يخلق ما يقول.. فحيلتي فيه قليلة!
 وقد كانت حيلتي في جرمون قليلة، أحببت صوته وأحببت سيرته،
 وأعطيت لنفسي الحق الذي أعطاه هو لنفسه، من قبل، لأكتب من
 وحي ما رواه ما رأيته، وأكذب كذباً على كذبه.

في قريتي. أبودياب شرق،

ونحن نقتسم فرحتنا بالعيد مع أمواتنا، بالشيخ امبارك، رأيت
 وسمعت عازف رباب يجعل ربابه يتحدث، نعم يتحدث كما يتحدث
 الناس، يقول أسماء من أعطوا لصاحبه قليلاً من المال.
 أحببت الرباب.

وصوت علي جرمون، يشبه صوت الرباب الذي يغني به.
 صوت، أينما سمعته أعاد لي كثيراً من نفسي.

عطا الله/ ربيع 2015



بدأت لي، المقدمة السابقة، جميلة حين قراتها لأول مرة، غير أنني بعد أن أعدت قراءتها للمرة الثانية، وأنا أتناول فنجان قهوتي، كانت خارج السياق، لا تصلح، لا علاقة لها بالمعالجة التلفزيونية.

أنا في حاجة لأن أتغاضى عن المشاهد التي تظهر أمامي، وإن بدأت مغرية للكتابة، في حاجة لأن أذكر نفسي دائماً أنني أكتب لمسلسل.

في حاجة لبدء الأحداث مباشرة.

الحلقة الأولى^(*)

سبحان من لا يزول أبدا، ولا ينام
لا نوم ليه ولا نعمة،
خالق لنا نهر، اسمه بحر
وأنا أملا،
ساتر على كل عاصي
وعالم بدبة النملة^(**)

يمص صدرها، بنهم جائع يخشى انتهاء الطعام، فم صغير
يدغدغ الحلمات.. بحثاً عما يرطب الريق، في صدر ضئيل ذابل،
يقاوم الجفاف، يقاوم ويقاوم.. ليعطي الأمل في الحياة لرضيعه،
الذي أحاط وجهه الذباب، في قيظ نهار، جلست فيه الأم مستسلمة
للأقدار، متسخة، بجوار خيمة، يعريها الجوع.

وبالجوار، كلاب بانسة، تأكل كلنا سبقهم للموت، وعلى الطريق
الهواء ثقيل.. يلتقط منه أنفاسه ذلك الغريب، الذي بدا منهكاً، جسده
واهن، ملابسه متربة، في يده زانة طويلة.

(*) نشرت أجزاء من هذه الحلقات تحت عنوان (المسيرة الهلالية - من وحى مارواه
جرمون) في بوابة الحضارات (موقع الأهرام للفنون) 2016.
(**) كل الأشعار التي وردت في هذا العمل، هي نقل عن الشاعر علي جرمون.

غير أنه ابتسم وهو يمر من بين خيام بني هلال، وهو يشم رائحة الموت من بين أجساد الأحياء، وهو يتأمل الجفاف في النخيل، والجوع في الأرض يتسلى بتوزيع المرض والموت على الناس.

في خيمته، يجلس السلطان حسن، مرتدياً شاشه الأبيض الذي لا يكشف سوى عن عينيه، كنيباً في صمت، وبجواره بعض من كبار قبيلته، حتى دخل الحارس وخلفه الغريب.

انحنى طويلاً للسلطان، حتى إذا قام سأله:

- من يكون ضيفي؟

- عابر سبيل، يطلب قليلاً من الراحة، قبل أن يمضي.

- ومن أين وإلى أين؟

- من بلاد الله لبلاد الله.

- أهلاً بك.

أشار له بالجلوس، ثم أمر بما يسمح بضيافته، وحين أتى طبقه، وكوب مائه، طلب السلطان من الخدم أن يأتوا له ب"المنقلة"، كي يتسلى باللعب مع هذا العابر.

رص كل منهما حصاه، في صفين متقابلين من الحفر الصغيرة الخشبية، ليتباريا على من يفوز بأكل حصى الآخر، وسط عيون متابعة.

تسعة أدوار متتالية، فاز فيها الغريب بدورين فقط، وفاز فيها السلطان حسن بسبعة متتالية، في آخر دور منها، وقف الغريب على قدميه، ليعلن أنه يتفاهل خيراً بحصاه، وأنه يريد أن يلعب به الدور العاشر والأخير مع السلطان، تأمله السلطان قليلاً قبل أن يهز رأسه موافقاً.

وأخرج الغريب المنقلة.

حباتها من ذهب، تبرق كشمس شروق تخترق الظلام بغتة، وتشع كنار تحت الضوء، ألقى بالحبات على الأرض فخطف بها عيني السلطان، والعيون المتابعة.

خطر.

أدرك السلطان حسن هذا الخطر، فطلب من ضيفه أن يلم حصاه، حتى لا يصنع فتنة في بني هلال، الجائعة.

غير أن الفتنة كانت قد حدثت بالفعل.

- هذه المنقلة منتشرة في بلادها أيها السلطان، يلعب بها الأطفال.

- وما هذا البلد الذي يلعب فيه الأطفال بـ"مناقل" من ذهب؟
- المارية، الشريفة، الخضراء، بلد التين والموز والسندوق والعنب الأبيض والأسمر والبرتقال والخروب، بلد الأشجار التي تنتظر بلهفة الريح، ليخفف على كاهلها زخم الثمار. تونس.
- كمن يصف النهر لشخص لم يذوق الماء منذ زمن.
- تونس!، ومن يكون صاحب المنقلة في تونس؟
- كنت واحدًا ممن حكموها، غير ما أتت به الأقدار.
- كنت ملكها؟
- أنا الشريف جبر، من أبناء العرب الذين أحبوا وشاركوا في حكمها، وأرغموا على فراقها منذ سنوات.
- يهز السلطان حسن رأسه: والآن؟
- لا أريد ملكًا، فقد علمتني الحياة، أنه زائل زائل، مهما طال، جنت فقط لأن أقول لك، إن لكم في تونس حقًا كبيرًا.
- أي حق؟
- حق أخوالكم الأشرف الذين غدر بهم الزناتي خليفة، في المساجد، فقتل منهم 11 ألفًا، وحقكم في الحياة.
- حق الحياة الذي يقدم على حق البقاء في الوطن.

يأمر السلطان حسن الخدم بدق الطبول، يقترب من إحداهما، فيضرب عليها بعصاه.. تتعالى الأصوات، تتلقاها الأذان المسترخية في خيام بني هلال غير مصدقة، آخر مرة سمعوها منذ سبع سنوات، منذ إعلانها وفاة الأمير سرحان.

الطبول تتعالى.. إنه إذا أمر يتعلق بالحياة والموت، يتعلق بالحرب.

تُرى أي حرب يدخلها السلطان ليدق لها الطبول بهذا الشكل؟ تتساءل النساء، زوجة الفارس الضعيف توصي صاحبها بالابتعاد عن قتال الموت، زوجة الفارس الشجاع.. توصيه بأن يأتي لها بالغنائم، بالأقمشة القطيفة، بالذهب والفضة، وقبل كل شيء.. بالأكل والشرب.. لأولاده.

حين تدق طبول الحرب لا يتراجع الرجال، واحدًا تلو الآخر، يخرج الفرسان بالجياد والسيوف، يتجمعون أمام خيمة السلطان، يتساءلون عن الحدث، والسلطان صامت داخل خيمته وفي حضرته كبار قومه، عقله مشغول، يشير لهم، فيصمتون، ثم ينظر إلى الشريف جبر، ويطلب أن يردد عليهم كل ما قاله.

ويردد الشريف جبر، وما أن يُنهي حديثه حتى يعرض السلطان حسن على بني هلال التغريبة، الهرب بهم من الجوع الذي يفضي إلى موت، البحث عن وطن آخر يبيت في أرواحهم الحياة.

وفي الغرب.. سماء كريمة، وأرض تُعطي، وحياة، وثار.
- أو نترك الوطن؟

لمبة بانسة، أسلاكها المترهلة تجعلها مثل شعلة نار ترغب في
الانطفاء، فتبعث دفناً غامضاً، وشيناً من ترقب.

بيوت من طين، تتمدد عليها سماء صافية مفتوحة، بنجوم لامعة،
وضوء قمر يتواءم مع حدة الظلام، فيعكس صورة جبل وحيد،
يقف على الحدود، بعيداً قريباً، يحرس من يشبكون أيديهم تحت
رءوسهم، مستسلمين للخيلات، مستمتعين بالهواء وهو يراقص
أجزاء النخيل.

الشمس المحمولة على كفي الجبل طوال النهار. طين الأرض.
رائحته التي تتغير بتغير فصول السنة. جدتي أمام الفرن تنتظر الفطير
المطبق. جلايب سوق السبت، شيشان الرأس البيضاء في صلاة
الجمعة. موسم كسر القصب. القلواح. قطار مصنع سكر دشنا. صباح
حيوانات تعيش لتزرع وتبني مع الناس. زرزور مشمراً ساقيه في
صقيع طوبة داخل مخمرة يلتقط لقمته من طينها. الطريق المحاذي
للترعة. مدرسة الشرايلة الابتدائية المشتركة، الطابور، لعبة القتل

في الفسحة، حصة موسيقى الأستاذ قرني، فضفضات المراهقين على كوبري الزنيقة، طللبة آب نبوت، درب النصاري، بسليّة نوارة التي يأتي ترابها من ثلاث طرق وتُخلط بالملح لترش على المخلوع، زجاجات الكينا الفارغة من بقايا سهرة عم جمعة، سورة الحشر وثلاث مرات من الإخلاص والناس والفلق يقرأها علينا عم علي لينجيننا من شر العيون والشياطين، وأخوهم الأكبر، جدي، محمد أب إسماعيل، وهو يقسم علينا أعمال الأرض والبهائم.

الوطن.

حكايات يامنة أم إبراهيم.

- من قال إن الوطن هو الأرض فقط، الوطن هو من يعيش على الأرض أولاً، قبل الزرع وقبل الرمل وقبل المطر، الوطن هو أنا وأنت وهؤلاء، فإن نجونا، نجا معنا، وإن متنا مات، ومات معنا كل شيء.

ووسط تأييد وترقب، وسط عيون ما بين قلقاً وفرحة، يأتي صوت.

- لكن أيها السلطان مثلما أنت فارس في بلدك، في البلاد الأخرى

فوارس أيضاً، وفي الغرب الزناتي خليفة، ومنازع والعلام.
كانت الجملة لعجوز، قالها فنشر الحيرة في عقول الناس.
غير أن السلطان يتدخل:

- لا يمكن لنا أن نعتمد على قوافل مكة والمدينة التي نغار عليها،
فلم تعد مؤن الحجاج قادرة على درء الجوع، وأهل الجزيرة ضاقوا
بنا، أمير مكة يُحاصرنا، ودار الخلافة، وكأنها لا تعرفنا.
صمت قليلاً، ثم أضاف:

- لقد نال القحط من كل شيء في بني هلال، إلا شجاعتهم.
- في الأمر، مغامرة كبيرة.
- أن نغامر، أفضل من أن نموت في أماكننا.

يسود الجدل، وتتعدد الآراء، لا بد من شورى، والجازية تملك
ربع الشورى، لتأتي وتحسم المسألة، ما بين فريق يسعى للرحيل،
وأخر يُفضل البقاء.

جميلة الجازية.. طويلة، أصوات خلايلها تسبقها، خلفها بعض من صباياها، التقاليد لم يبيلها القحط، عيناها واسعتان، جسدها ممتلى بغير ترهل، بشرتها ورده يافعة في أرض صحراء، دخلت، فسكت الجميع ليتأملوها، ووقف السلطان ليستقبلها.

وبعد أن جلست بجواره، ومضى الصبايا خارج الخيمة، حكى لها الأمر، أسمعها ما قاله الشريف جبر، وما اختلف عليه القوم.

- ليسافر فارس واحد يستطلع الأمر أولاً، فإذا وجد ما قاله الشريف جبر، وعرف ما يحمله الطريق، ارتحل بنو هلال، وإن لم يجد.. بقينا في انتظار المطر، ووفرنا أمواتاً جددًا من وهن التعب والجوع.

ومن هذا الفارس الذي يذهب وحده إلى تونس؟ الرحلة طويلة، والجبال وعرة، والمهمة صعبة، ربما استغرقت شهورًا، ربما سنوات؟

يتساءل الحضور، فتأتي الإجابة أيضًا من الجازية: لا يوجد غيره!

يتأكد السلطان: أتقصد...؟!!

- نعم، ومن غيره؟

- وماذا إن رفض أبوزيد؟

يأخذ الشريف جبر نفسه، بهدوء، بعد أن سمع اسم الأمير أبي زيد.. والجازية ترد.

- وكيف يرفض أمرًا يمكن أن ينقذ فقراء بني هلال من الموت والهلاك.

جسد قوي، يرتدي القفطان، على طربوشه شاش أبيض، وفي يده خرزانة، يدخل الهلالي سلامة خيمة السلطان، مُهَابًا، فيقف الجميع إلا الجازية.

يتقدم السلطان.

- أهلاً أهلاً يا ابن العم.

يدرك أبو زيد جيداً، أن السلطان إذا ناداه بابن العم، فهو يريد شيئاً ما، إنه "ابن عم" فقط في الشدة، في جلساته الخاصة، يحلو التنكيت على لونه الأسود، أحياناً.

أشار السلطان لأحد خدمه بأن يأتي بكرسي خاص ليجلس عليه "ابن العم" بجواره.

- ماذا تريد يا حسن؟

"حسن" هكذا، بلا تفخيم أو تودد، لم تسبقها كلمة السلطان، ولا حتى ابن العم!

أبوزيد أعلن عن فهمه إذن، اعتاد أن يفعل ذلك مع السلطان، كما
اعتاد - أيضًا - عليه السلطان!
- ليجلس الفارس أولاً.

يضع الخادم أمامه لبن إبل، يتطلع أبوزيد في وجوه الناس المتطلعة
إليه، وجهًا وجهًا، حتى تتوقف عيناه الضيقتان عند عيني الجازية،
يا له من كبرياء ذلك الذي يسكنهما.

تكلم حسن عن القحط، عن الذين باعوا بناتهم من أجل وجبة
عشاء، عن الغلابة والفقراء ويتامى الجوع، ثم ما سمعه من الشريف
جبر، وفكرة الارتحال إلى تونس، والشورى، وموافقة بني هلال،
و....

- لم نجد أفضل منك يا أمير لتكون مرشدنا!

ينظر في عيني السلطان، المتلهفة للحصول على رد، فيخيم الصمت،
صمت فرضه أبوزيد، ولا يستطيع أن يقطعه سوى أبي زيد.
- أهو رأي السلطان أم رأي امرأة؟
تقف الجازية.

- بل هو رأي الحاجة يا أمير، رأي القحط والمجاعة، والحظر والهلاك.

- ولماذا أبوزيد؟!

- لأنك، فارس القبيلة الأول، وهذا واجبك.

تحبه الجازية وتكرهه، يعرف أبوزيد ذلك جيدًا.

تحب فيه الفارس الذي لا يقهر، وتكره فيه "ابن العم" الذي تعالى عليها، وتخشاه كمنازع وحيد لأخيها حسن، فهو قوي.. في عصر يقدر القوة ويبجلها، محاط بمحبة الفقراء.. في زمن لا يعنيه دائمًا أمر الفقراء. إن أراد السلطة، بالإمارة أو بالقوة أو بمحبة الفقراء، لحصل عليها.

غير أن أبا زيد نفسه.. لم يفكر في الأمر، فهو اختار أن يكون بين الناس، بين خيام المحكومين لا قصور الحكام.

- وماذا إن رفضت؟

- لا شيء.

يصيب سؤال أبي زيد وإجابة الجازية الحضور بالإحباط.

- لدي شرط.

- ما هو؟

- مثلما اخترتموني لأن أذهب إلى هذه الرحلة، أختار ثلاثة فرسان منكم يراقونني.

- ومن هم؟

- يحيى ومرعي ويونس.

تزوج الأمير سرحان ثلاث مرات، أولهن بنت بلاد الحسب والنسب، السماء، فأنجب منها الأمير حسن والأميرة الجازية، وتزوج من جارية كان قد دخل عليها وحملت، فأنجبت له مجاجي وسعودي، وفي آخر أيامه، تزوج من بنت الأمير رزق، الشيعاء، أخت أبي زيد، وقبل أن يموت كان قد أنجب منها يحيى ومرعي ويونس.

إنه الخال.

كان الثلاثة من ضمن الموجودين في خيمة السلطان، وفور أن سمعوا كلام الأمير أبي زيد، ذهبوا لتجهيز حالهم، فروسيتهم تسبقهم،

فعلوا ذلك دون انتظار لنهاية المناقشة، دون سماع موافقة السلطان من عدمه، سيستعدون للرحلة الغامضة، وجدت أو لم توجد.

لم يمر كثير من الوقت، حين خرج يحيى من خيمته بصحبة قاعوده الصغير، ووراءه مرعي ممسكاً قاعوده، وخلفهما خرج قاعود يونس المعلق في أذنيه قرطان، يزيدانه جمالاً على جماله.

في خيمته، أبوزيد يضع يده على جملة الأسود، يطلب من عبده أبو القمصان، أن يأتي له بالربابة، وجراب الأحبال، والماء، وأرغفة الخبز.

راح يوصي نجد، صبي بني الزحلان، الصغير الذي رباه، أوصاه على ابنته، ريا الواقعة بجوارهما، عيناها لم تنزل عن عيني والدها.

- لمن سيتركني الأمير أبوزيد؟

- أنت بين أهلك، في بني هلال، حسن السلطان والقاضي بدير، الأمير دياب والأمير زيدان.

- السلطان في خيمته، منذ زمن، لم يعد له علاقة بما يحدث خارجها، والقاضي بدير، مشغول بطلاق الجوعى، كل ليلة في ديوان، ودياب كذاب، وأنت من قلت لي أن أتعامل مع كل الناس إلا الكذاب، الأمير زيدان لا يزال صغيراً، حتى الآن يلهو مع الأطفال.

يقترّب منها، يمسك ذراعيها.

- دعك من الناس، أنتِ في نمة المولى، الذي لا يغفل ولا ينام.

صمتت طويلاً، حتى عادت هادئة.

- لترحل يا أمير، غلبتني بالله.

ابتسم أبو زيد، احتضن ابنته، وخرج.. بعد أن تبادلوا الابتسامات.

كان يحيى ومرعي ويونس في انتظاره، بجوارهم الأميرة السماء،
بعيون دامعة، حتى ظهر أبو زيد فأسرعت إليه.

- يحيى صبور، يمكن الاعتماد عليه في رعي القعدان، مرعي
قوي البنيان، يمكن الاعتماد عليه في سقي القعدان، ويونس، كما
تراه، جميل، يمكن الاعتماد عليه في البيع والشراء.

أوصته بالآلا يستجيب في طريقه لصدى الأصوات، إنها أفعال جن
وشياطين. لا يُشعل نارًا في الخلاء، حتى لا يلفت إليه نظر قطاع
الطرق. لا يمشي في الأراضي البيضاء، تغواها الثعابين، ثم نزع
من فوق صدرها عُقدها، وألبسته ليونس:

- الغائب تعود به الأيام.

قبيل الغروب، تجلس خشم باب بيتها، في الدرب القديم، يلتف حولها النسوة، في انتظار الإجابات.

تقلب يامنه أم إبراهيم بيديها نواة النخيل، توشوشه، ثم تضعه برفق على الأرض، لترى وتسمع له، حين يحدثها عن الغائبين والأيام.

يؤذن المغرب، فتدخل بيتها، قبل أن يعود محمد أب إسماعيل. يأتي لها زرزور بـ"المضغة" سراً، حتى لا يعرف خاله بالأمر، مع أن جدي كان يعرف، وإن أظهر دائماً أنه لا يعرف.

في مساءات كثيرة، رافقتها لبيت الحاج إبراهيم، رأيت آخر أيامه، أمسكت ذات مرة بندقيته الكلاسيكية ذات الفتحتين، وسمعت منه عن مغامراته ليلاً يطارد اللصوص، أعلن ذات مرة ذهابه للمنيا ليحارب الإنجليز، أعادوه بالعافية من الباب.

كان قد خور، فاختلط لديه سعد زغلول بجمال عبدالناصر.

ذات نهار، انفجر عرق يدها بالدماء، اندفع قوياً مما جعلها تفرع، وقفت من على طشت الغسيل، خائفة، تمسك بيدها.

- الحقيني يا بت حسن.

التفتت أُمي فائلةً بيضاء من على الحبل، مزقتها لتربط العرق،
حتى توقف عن الصراخ.

في صباح اليوم التالي، لبست البردة، وودعت نسوة الدرب، فتح
لها أبي باب الكابينة الخلفية، من سيارته الداتسون. لم يظهر من
البردة التي ارتدتها سوى عينين خانفتين، تتطلعان في الطريق.
قضت في مستشفى أسويط ليلتين، بعد إجراء جراحة منعت من
صراخ العرق.

ومن وقتها، يُقسَم التاريخ عند يامنة أم إبراهيم، إلى عصرين:
"قبل العملية" و"بعد العملية".

أحب أن أشاهدها وهي تصلي، حفظها عمي غريب الفاتحة،
تقولها في أي موضع، بداية الركعة، وبدلاً عن التشهد.
صانقةً جدًا وهي تنظر للسماء، وتسالها: يا حنان يا منان..
يا رب.

ذات يوم، صلت، ثم خلعت خاتمها الذهبي الوحيد، لتشتري لي
عجلة.



برفق، طلب يحيى منها أن تعود إلى خيمتها، مرعي على قاعوده،
ينظر لأبي زيد، متخففاً من عبء الوداع.

- هيا بنا يا خال، الخبز الذي سناكله، أعد لنا في الأمام.

- ما يلا بينا يا خال.

كانت جدتي لأمي أمينة المربوطي جالسة على الدكة، في حاصل
منزلها، وأنا أقف على الحمام، شنطتي في يدي، أطالب خالي كمال
بأن يسرع.

قالت زاعقة: ما تقمبر، مالك؟، راكبك شيطان.

ابتسمت، وحرصت على ألا أعلق. جلست على الدكة بجوارها
بأدب مصطنع.

- عايز تغرب، غرب، بس أحرس نفسك، العيال بتركب بعضها
هناك.

كلما رايت جدتي أمينة تزعق ابتسم، أعلن لها آراء لا تتفق مع
وجهات نظرها، من أجل أن تستمر، ومن أجل أن ابتسم، كانت

جميلة وهي تزعم، حين تكشفني تعلق: شوف الواد.
ثم تبتسم، فأبتسم.

هذه المرة، لا أريد أن أراجعها، لا أريد أن أختلف معها، جملتها
في النهاية، وإن بدت قاسية، لن تغير من الواقع شيئاً.. سأعزب.

زحام يليق بالدرجة الثالثة، بـ"ستة جنبيات وسبعين قرشاً"، تُكتب
عدداً، بخط يدوي سريع في بند قيمة التذكرة، الكراسي ممتلئة، وبين
امتلائها ركاباً يملؤها أكثر، شاب يكوم الحقائب بالأعلى، ليجلس
بديلاً عنها. عانيت مرتين، وأنا أقنع من وقفوا داخل الحمام بضرورة
خروج مياهي البالية.

بين العربتين، تركني خالي، ثم عاد بعد قليل، عقد اتفاقاً مع راكب
سينزل في أسيوط، سيشير لنا حين يستعد للمغادرة.

فور أن جلسنا مكان الرجل وامراته، أخرجت البيض الذي
أعدته لي أمي، رغيف العيش الشمسي، الجبنة القديمة، كيس البلح
الأخضر.

سخر خالي في البداية، بعد ثانيّتين مد يده، لم نتوقف عن الأكل،
إلا بعد أن نفد.

كان العرق ينسال منا بالداخل، فقدنا الهواء الذي وجدناه بين
العربتين، هواءً ساخناً، يجعلنا بنصف عرق، نصف العمى، أفضل
من الروائح النفاثة في الداخل، مؤخرات الأطفال، أفواه العجائز،
زلعات المش، طلاب الجامعة، جنود الأمن المركزي، عمال المعمار
الباحثين عن لقمة العيش في المن، والمرضى الذاهبون للعلاج عند
بكاترة مصر.

بدأت لي السيارة المرسيديس موديل الثمانينيات، التي حملتنا من
منطقة القللي إلى العريش، مثل دبابة جيش، وكأنني ذاهب لتحرير
أرضي، أو روعي.

الصحراء، شاشة سينما، تعرض صوراً قديمة على الطريق.



من بين سكان بني هلال، من بين أمرانهم وجوعاهم، رجالهم
ونسائهم، الصغار والعجائز، قبور من ماتوا ومن تمسكوا بالحياة،
يخترق الفرسان الأربعة طريقهم، يودعون ويودعون، حتى غابوا
عن الأعين، وأكلتهم الصحراء.

عشر ليالٍ تمر، بلاد تستقبلهم بالأحضان، وبلاد ترميهم بالأحجار،
مدن كريمة، ومدن بخيلة.

في نهار اليوم الحادي عشر، وقف أبوزيد يدقق النظر، حتى
تحقق من وجود شجرة بعيدة، طلب من أولاد أخته أن يتبعوه.

مياه البئر حلوة، شربوا، سقوا قعدانهم، أخرجوا الأكل، تناولوا
الغداء، توضأوا، أمهم أبوزيد للصلاة، قرروا أن يناموا قليلاً، على
أن يستأنفوا الرحلة بعد مغيب الشمس.

ظل أبوزيد مستيقظاً، يتأمل الصحراء المترامية ودوي أصواتها،
سارخاً في ماضيه وماضي والده.

شركة إيديال
محمود شعبان IDEAL
الوكلاء الموزعون لشركة الدلتا الصناعية
قنا - ميدان المحطة عمارة الأوقاف ت 2504

فاتورة نقدًا رقم 000705 قنا في 1980 /3 /30

مباع إلى/ عطا الله محمد إسماعيل

تلفزيون NEC 12 بوصة، الكمية 1، القيمة 118 جنيهاً. فقط مئة
وثمانية عشر جنيهاً.

كل فاتورة زادت قيمتها على 100 قرش ولو كانت حاملة المخالصة، لا قيمة لها إلا
إذا لصق عليها طابع دمغة بثلاثين مليماً.

بسم الله الرحمن الرحيم

دكتور

حسني محمد عزمي

بكالوريوس الطب والجراحة - طب أسبوط

ماجستير الباطنة والحميات - طب الأزهر

أخصائي الباطنة والحميات بمستشفى الحميات بقنا

الاسم/ الطفل/ أحمد عطا الله التاريخ 8 مايو 1982

السن/ سنتان

Rl erythromycin granular

ملعقة كل 6 ساعات

Rl septazol

ملعقة صباحًا وملعقة مساءً

Rl spasmocibalg

لبوس عند ارتفاع الحرارة

Rl medivit

ملعقة صغيرة 3 مرات يوميًا

165

70

50

55

340 قرشًا

ج/ عطا الله

صباح الخير

العربة حالتها سينة جدًا، بتقطع أثناء السير، لمبة الدينامو تطفئ وتضيء، وكذلك لمبة الزيت، وهي أمور لم تحدث من قبل، علمًا بأن إطفاءها قل عندما كنت أضغط على الدبرياج للداخل، محتمل أن تكون أسطوانة الدبرياج بها شرخ، لذلك يمكنك متابعة إصلاحها في الحملة اليوم الأحد، وهي غالبًا تحتاج إلى تغيير طقم البوجيهات وأبلاطين، يمكنك طلب ذلك من السيد الرائد/ محمد عبد المنعم، علمًا بأنني سوف أحضر من المأمورية وساسافر مرة أخرى، لذلك يمكنك تركها في الفرع أمام مكتب النقيب محمود، مع طلب تجهيزها من المجند/ سيد مرسي، على أن تبدأ إجازتك من يوم الاثنين 7/23 وتحضر صباح يوم 8/4.

مقدم ثروت

1982/7/22

وصل الأمير رزق بن نائل الستين دون أن ينبج أطفالا، حتى سمع يوماً، دوي صوت الصحراء يطالبه بالرحيل إلى مكة ليتزوج، فنصحه أخوه الأمير سرحان بالذهاب إلى الحج، وفي مكة الشريفة زار بيت الله، ومسجد حبيب الله، صلى ودعا، وفور أن أنهى حجته، رأى الخضراء، بنت شريف مكة، سلاله سيدنا النبي، عليه الصلاة والسلام، ولم يعد من مكة إلا وهي زوجة له.

أفاق أبوزيد من ماضي والده، على صورة أربعة غربان، ثلاثة منهم ألوانهم بيضاء، يتقدمهم ناحية الغرب رابع أسود، حلقوا حتى أخفتهم الجبال، وبعد قليل، وقت الغروب بالضبط، عاد الأسود وحده، دون الآخرين.

قال سيئ.

يتشاءم، ينبض قلبه، يسرح في كلام أخته شيحاء، حين ودعته: "إن لم يعودوا، سأجعل أيادي كل بني هلال تنال منك، وسأكون أولهم"، هم واقفاً، يفتش في متاعه، أخرج جراب الأحبال، افترش رمله وودعه.

يحيى مقتولاً، ومرعي ينال منه ثعبان، ويونس مسجون في قصر.

يكرر سؤاله، يسترجع كل ما تعلمه من فنون السحر وضرب الودع، في بني الزحلان. ويفزع أبوزيد من تكرار النتيجة.

- هيا يا شباب، هيا لنعود، الاستمرار في التخريبية يعني موتكم، وإذا كان لا بد من موت فليكن بين الأهل، الموت بين الأهل أفضل. هيا.

وكيف يفكرون في الموت، وقد أعطوا الأمل في الحياة لبني هلال؟
أليس الأمل في الحياة.. حياة، ماذا سيقولون لهم؟ هل يقولون إن الرمل هو من أعادهم؟ وإذا عادوا وقالوا، هل يسلمون من سخرية الأطفال والكبار؟!

- الله غالب على أمره يا خال.. الله غالب، إن كان قد كتب علينا الموت في هذه الرحلة، فسنموت.. سنموت، الله إذا أذن بالرحيل، لا يمكن وصل العمر بالحبال، ثم.. ليس الرجل من يسلم للأقدار، ولكن الرجل من يدفع الأقدار بالأقدار.

الحلقة الثانية

يا مية ندامة على اللي حب، ولا طالشي
فيه ناس بتبلغ أمل
عند العمل، وتطول
وناس بتجري من الشمس للمغرب
شمعنى ليلة الأسيّة، شرحها بيطول؟
وأدي ليلة الفرح، يطلع شمشها مغرب!

رمالها.. ناعمة وهادنة، جبالها لا تعكر صفو ناظر أو متأمل،
لكن الصحراء قاسية وجافة، خاصة في قيظ نهارات الصيف، تحبها
الشمس، لأنها تشعرها بالقوة والسطوة والتملك.

كانت الشمس قد وصلت إلى منتصف السماء، وهي تشع في
الأرض نورًا ونارًا، حين وصل الأمير أبوزيد وأولاد أخته، على
حدود قرية صغيرة، في يومهم الثاني عشر.

من بعيد.. على الحدود، وقفوا ينظرون لمعالم القرية، في صمت
يفرضه اتساع الصحراء على جانبيها، ووهن السفر تحت الأشعة

الملتهبة، أبوزيد اقترح أن يتجول أولاً، وحده، سريعاً، قبل أن يقرروا إن كانوا سيبيتون فيها أم يمضون بحثاً عن مكان آخر.

جميلة القرية، شوارعها ضيقة ونظيفة، بعض من بناياتها يزخر بالفن، بيوتها هادئة، تجول الأمير في شوارعها، دون أن يعترضه أحد، فاطمان لأهلها، ثم عاد إلى أولاد أخته، ليقرروا أن تكون مسكنهم لنصف نهار، وربما لليلة معه، على أن يبحثوا فيها عن مكان يضايفهم.

مر الغرباء الأربعة على بئر ماء، كان يقف بجوارها رجل، يطرطش الحزن على وجهه، ملابسه مهلهلة، تكشف عن ساقين ضعيفتين، وهو يرفع قارورة ماء على رأس طفلة، حين مضت، جلس يغني.

"أنا اللي كوتني الليالي وب أنشوي بالنار".

توقفوا، فشاهدتهم.

- نحن.. عابرو سبيل، نبحث عن مكان نقضي فيه ما بقي من نهارنا وليلته.

وكان الرجل انتبه لوجودهم فجأة، هب واقفاً، مرحباً بهم كما يليق بسادة عرب.

- أهلاً وسهلاً بضيوف المولى.. مرحباً بكم، بدل الليلة عشرة أيام.

تكلم سبّال البئر بكرم زائد، استقبل الغرباء بترحيب ملوك، يتناقض مع هيئته، ويتناقض مع هيئتهم.

دعاهم بأن يتفضلوا ويتبعوه إلى ساحته، فصحبهم إلى بناية ملاصقة لمنزل، إنها ليست مجرد ساحة للضيوف، هي في الحقيقة أقرب لقصر صغير، تتم عن ثراء مضي، منمنمات فنية على الجدران، أربعة أركان يتوسطها صحن مربع مفروش بالرخام الملون، قصر شبه مهجور، يملأ التراب أركانه، لا أثاث فيه، العنكبوت فقط هو الضيف الوحيد المقيم.

أبييتون هنا؟!

- هيا بنا يا خال، لنبحث عن ديوان آخر يصلح للبيت، ديوان عامر، انظر الأتربة التي تغطي كل شيء، هذه الساحة لم يزرها ضيوف منذ زمن، لا تصلح لاستقبال ضيوف، ثم هل أنت مقتنع أن هذا الرجل يستطيع فعلاً.. أن يوفر لنا شيئاً للضيافة؟

- من العيب أن نترك الرجل وقد رحب بنا، جبر الخواطر..
حلال، هي ليلة، لنقضها كما تكون، وغداً نكمل رحلتنا.

طلب أبو زيد أن "ينخوا" الجمال حتى تستريح، لينزلوا أمتعتهم،
ويستعدوا للمبيت.

في مسكنه المجاور، وقف السبّال بملاح حائرة، وهو ينده.
- يا زبيدة، أين أنتِ يا زبيدة؟

لم تكن زبيدة أقل منه فقراً، حين خرجت من إحدى الغرف تسأله
عما جرى، وحين وقفت أمامه تماماً، حكى لها ما حدث، جلوسه
على البئر، الفرسان الأربعة، ثلاثة بشرتهم بيضاء، ورابع أسود
صاحب مقام، سؤالهم المبيت والضيافة،.. و....

- عزت علي نفسي أن أسمع أحداً يطلب الضيافة، فلا أجيب،
أتيت بهم إلى هنا، هاتي لي السكين، لأذبح القاعد، نقدمه لضيوف
الرحمن.

- وكيف يا رجل تذبح قاعودك الوحيد؟ نحن لا نملك شيئاً غيره.

- "أجود الناس من جاد من قلة، وصان وجه السائل عن المذلة" (٥).. جبر الخواطر حلال يا زبيدة.

- ومن يصون وجهك يا ياسين؟، من يجبر بخاطرنا بعد ذلك؟، القاعود.. هو آخر ما نملكه، لا وسيلة لقضاء حوائجنا غيره، ثم إن عدد الضيوف قليل على أن تذبح لهم جملاً بحاله، وإن ذبحته، قل لي كيف تقدمه بلا خبز؟، لا يوجد خبز في البيت يا رجل، لا يوجد شيء، أي شيء.

طرحت زبيدة أسنلتها بصوت عالٍ، ليجدا نفسيهما في مأزق ما بين التزام ياسين بحق الضيافة، وبين عدم وجود شيء يجعله يفى بهذه الضيافة.

وبعد جدل وصمت، وجدل وصمت، شع حل في عقل زبيدة، اقترحت أن تذهب إلى بيت والدها، وتأتي بالطعام.

لفت على جسدها قطعة شال.. أخفته، وإن لم تخف فقرها، وخرجت زبيدة، فرمقها بعينيه الأسود.

(*) مقولة عربية قديمة، مجهولة القائل.

أَلَقَتْ زَبِيدَةَ عَلَى وَالِدِهَا السَّلَامَ، وَقَدْ وَجَدَتْهُ مَسْتَرْخِيًا، لَمْ يَنْهَ بَعْدَ رَاحَةِ الظَّهِيرَةِ، اعْتَدَلَ فِي جَلْسَتِهِ قَلِيلًا، التَّقَفَ عَمَتَهُ لِيَلْبِسَهَا.

- أَهْلًا سَيِّدَةَ الدَّلَالِ، جَاءَتْ بِكِ حَاجَةٌ يَا زَبِيدَةَ، فَلَمْ نَعْتَدِ زِيَارَتِكَ!

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وَقْتُ اللُّوْقُوفِ كَثِيرًا أَمَامَ جَفَاءِ المِقَابِلَةِ، حَكَتْ لَهُ زَبِيدَةُ حِكَايَةَ يَاسِينَ وَضِيُوفِهِ، الِوْرَطَةَ الَّتِي وَقَعَا فِيهَا، ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْهُ المَسَاعِدَةَ.

- لَا مَشْكَالَةَ يَا ابْنَتِي.. اذْهَبِي وَتَعَالِي بِضِيُوفِكَ هُنَا.. لِيَأْكُلُوا وَيَسْتَرِيحُوا.

- أَلَبَّ بِهِمْ إِلَى هُنَا!، أَنْقَلِ ضِيُوفِي، كَيْفَ أَنْقَلِ ضِيُوفِي؟، مِنْذُ مَتَى تَسْمَحُ أَصُولُ العَرَبِ بِنَقْلِ الضِّيُوفِ؟!

- مِنْذُ الآنَ، مِنْذُ أَنْ قَلْتُ أَنَا، فَإِذَا كَانَتْ أَصُولُ العَرَبِ لَا تَسْمَحُ بِنَقْلِ الضِّيُوفِ، فَأَنَا أَيْضًا لَا أَسْمَحُ بِنَقْلِ خَبْزِي إِلَى مَكَانٍ آخَرَ.

مَا الَّذِي يَقُولُهُ الأبُّ؟ زَبِيدَةُ غَيْرُ مُصَدِّقَةٍ، تَدْمَعُ عَيْنَاهَا، تَتَدَاعَى إِلَى ذَاكِرَتِهَا مَشَاهِدَ قَدِيمَةٍ لَهُ وَهُوَ فِي قَصْرِهَا وَقْتُ أَنْ كَانَ مَبْهَجًا، مَلِينًا بِالعَبِيدِ، مَمْتَلِنًا بِالضِّيُوفِ، قَصَرَ زَوْجَهَا يَاسِينَ، تُذَكِّرُ نَفْسَهَا وَهِيَ تَذَكُرُهُ:

- أَيُّخُونُكَ وَدِ يَاسِينَ؟ أَنْسَيْتِ، كُنْتُ تَأْتِي إِلَى السَّاحَةِ، وَتَقُولُ

لي: أريد أن أتوضأ، فأحضر لك طشتًا من فضة وإبريقًا من ذهب،
فتقول لي: هل يمكن أن أخذهما للوضوء عندي في البيت، فأقول
لك: مع السلامة يا والدي، أنسييت؟! لم يكن هذا ظني بك أيها
الخائن.

استفزت الكلمة الأخيرة أمين، فوقف على قدميه، نادى على
عبيده، ليخرجوها من البيت ضربًا بالكرابيج.

- لست أبًا لي، لست أبي يا أمين.

نواحها يعلو خارج القصر.

- يا الله، لمن أذهب؟ ثقيلة الحمل على الولايا.

تسمعها هلبت، تجري وراءها لتلحقها، تحاول أن تهدئ من
روعها، وهي تسألها عن سبب عويلها.

وبعد محايلة الصديقة وزوجة الأب هلبت لصديقتها وابنة الأب
زبيدة، حكّت لها عن الورطة التي وقعت فيها، ضيوف زوجها،
وقلة الحاجة، ورد فعل الأب.

- لا تبك يا زبيدة، لا تبك، من يستره المولى، لا يستطيع أن
يفعل له شيئًا الإنسان؟، تعالي معي، سنذهب لأبي.

أذهب معها، أصدع خلفها السلم الطيني، الدرجات الممتدة فوق بعضها البعض دون انحناء، حجرة في المواجهة وحجرة على الشمال، واحدة لعطا الله والثانية لامبارك. أخوين وصديقين، سافرا لليبيا معًا، وعادا معًا، وتزوجا معًا، حتى فرقت بينهما السعودية.

بين الحجرتين، مساحة فارغة للغسيل، في نهايتها كانون واحد، كانت تطبخ عليه أمي مع بنت فكري.

تفتح بنت حسن قفل باب حجرتها، وتدخل.

على الجدران المدهونة بالأصفر، لوحة سيرالية لفنان تشكيلي، صورة كبيرة لقرط ذهبي، صورة لعمي غريب وأخرى لزوجته، وصورتان لأبي، واحدة بالزى العسكري، وأخرى.. بدا فيها كنجم سينمائي شاب، يطلق شعر رأسه، يحمل الكاسيت ويضع سيجارة في فمه.

رائحة دولااب أمي لازالت، كما هي، جميلة.

كانت ترص جلاليب أبي المكواة في المدينة، برفق فوق بعضها. أعلى درفة المنتصف، علبة دائرية، فيها مصوغاتها، وبجوارها علبة من الصاج، كانت تخبئ لي فيه، بسكويت ماركت نواعم.

نهاية السرير، تقف كاميرا فوتوغرافية ماركة yashka، على حاملها المعدني، تبدو وكأنها تتحدث لمن ينظر إليها في المواجهة.

وبجوارها ترابيزة صغيرة، عليها علبة بها شرائط من الأفلام
السالب، أعداد قديمة من الأهرام، وكاسيت.. رصت بجواره أغاني
الست بعناية.

تفتح أمي أقفال حقائب السفر الكبيرة. بعد أن تنفض عنهم التراب،
وتتركني لأعبث في فضول.

البومات صور، كتب، عملات فضية لبلاد مختلفة، خنجر، بدل
وينطلونات جينز وتي شيرتات شاهدة على أيامه في القاهرة، أوراق
رسمية، تذكارات، كروت معايدة، وصورة لـ *estella taylor*،^(٥)
تشع بالأنوثة والجمال.

وخطابات، كثير من الخطابات.

(*) *estella taylor* (1894 - 1958)، ممثلة ومغنية أمريكية ونشطة في مجال حقوق
الحيوان، تُعتبر واحدة من أجمل نجوم الأفلام الصامتة.

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأخ/ عطا الله محمد إسماعيل

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أعرفك أنني طيب وبخير الحمد لله، ولا يكون عندكم شاغل من طرفنا، خطابكم وصلنا، وحمدنا الله على تمام صحتكم التي أتمناها لكم على طول الدوام، ووصل خطاب من والدك بيقول شد حيلك مع أخيك غريب، وأنا مستعد بأي طلب، وأعرفك أنا أرسلت له ثلاجة 10 قدم، و3 م صوف بدلة، و2 م بنطلون قماش وقطعة قماش لي،

وبعد...

مرسل لك مبلغ 500 ريال على بنك مصر فرع الحلمية، وأنت تتصرف مع الأستاذ غريب، أعطه اللي هو عاوزه وربنا يسهل والله الموفق.

وأهدي سلامي إلى المعلم سعد بنوي وسعد محمد وكمال يوسف

وحسن السوهاجي وعثمان إبراهيم والأستاذ عبد الله محمود
والأستاذ رفاعي حسن وعنتر علي، ومن ناحيتنا يهديكم السلام الحاج
سيف والمعلم عبده محمد.

والسلام ختام

من طرف المعلم/ مبارك محمد إسماعيل.
في 1984/2/4
ورد سريع

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
وَبِهِ نَسْتَعِیْنُ عَلٰی اُمُوْر الدُّنْیَا وَالدِّیْنِ.

عمی العزیز بل والدی الحاج/ محمد إسماعیل.
ست الحبابب أمی الحاجة/ أم مبارک.

أطال الله لنا في عمرکم ومنحکم الله من فضله ورعايته مزيدًا
من الصحة والعافية.

أخوتي وأخواتي الأعراء/ كل من في البيت كبير وصغير.
السلام علیکم ورحمة الله وبرکاته.

شعور غریب وأنا أمسک القلم وأکتب إلیکم وأنتم لا تعرفونی،
وإن كنت من خلال عشرتی لزوجی العزیز، عرفت معدن هذا
البيت الطیب الکریم.

الحمد لله، نحن بخیر ومتشوش هم مبارک، ده زوجی وفي
عنيا من جوه، وإحنا کویسین أوی أوی أوی.

طبعا یا والدی إنتم زعلانین منی علشان أنا نزلت مصر ومجتش

عندكم، للعلم والإحاطه أنا معرفش طريقكم، وسمعت كلام خوفني،
إني لو نزلت الصعيد يمكن مرجعش لأهلي تاني، والدتي كانت
معايا وخافت عليا.

الحمد لله أنا فعلاً معرفكمش ولا تعرفوني، لكن مسير الحي
يتقابل، وتعرفوا مين هي عزيزة.

يمكن تعريف بسيط بيا، أنا اسمي عزيزة السيد مرعي من البحيرة،
من بيت محافظ جداً، والدي ووالدتي موجودين، أختي الكبيرة معاها
بكالوريوس تجارة، موظفة ومتزوجة، لي أخ مهندس يعمل بايطاليا، وأخ
خلص جامعة وبلوقتي في الجيش، وأخ وأخت توأم في الصف الثالث
الثانوي، عائلتنا معروفة، وعائلة أمي معروفة في أبوحمص.

معرفتكمش بنفسي، أنا موظفة في إدارة التخطيط والمتابعة بالمحافظة،
ومعايا معهد فني خياطة، يعني خياطة فساتين من الدرجة الأولى،
وبمارس المهنة في السعودية.

أهدي سلامي إلى الأخ عطا الله اللي مرضاش يكلمنا في الشريط،
وكان قاعد، وأهدي سلامي إلى زوجته وأولاده وإلى المنثر وحرمه
وإلى الأخ محمود زبنا يوفقه في دراسته.

ابنتكم/ عزيزة

1990/10/11

اشترطت زبيدة ألا تدخل البيت، اتفقت مع هلبت أن تنتظرها بالخارج.

دخلت هلبت بيت والدها صالح، حين رآها تقدم يأخذها بالأحضان، مرحبًا بابنته، مطالبًا إياها بالجلوس، غير أنها سريعًا ما طرحت عليه سؤالها.

- من أعز صديق لك في بلدتنا هذه يا والدي؟

- لماذا؟

- قل لي فقط.

- ياسين، الذي مال عليه الزمن، كثيرًا ما وقف بجواري وقت الحاجة.

إجابته سريعة، وهي أيضًا الإجابة المنتظرة والمطلوبة، لتعلن بعدها هلبت سبب مجيئها، حكاية الضيوف الذين مروا على صديقه صدفه، فدعاهم للمبيت عنده، دون أن يكون معه ما يفي بحق هذه الضيافة.

- لكن صديقي، إن أراد شيئًا، أرسل لي رسالًا.

- رسالته بالخارج، فمثلما أنت صديق له، أنا صديقة لزوجته.

تدخل زبيدة، ودون أن يعطوها أي فرصة للكلام، تتلقفها الجواري، فيدخلنها الحمام، ولا يخرجنها منه إلا بملابس جديدة زاهية، تدب

الحياة في وجهها، وإن ظلت الحيرة لا تفارق عينيها.

- مالي بكل هذا، لا أريده.. ما أريده فقط هو الستر، لتطعم لي
يا صالح ضيوف المولى، عن طيب قلب ورضا، وأنا راضية وإن
لبست خيش جمال.

الحلقة الثالثة

شوف البخت لما مال
والماويل صبح معبول
ما كنت خالص يا قلبي
إيش أشبكك مع دول؟

لا يوجد أقى من الانتظار.. سوى الانتظار.

كان ياسين جالسًا مع ضيوفه، متوترًا، لا يعرف ما يقوله، فقط..
بين حين وآخر، يردد: يا مرحب، فيردون عليه: يا مرحب بك.
أخذ ياسين نفسًا عميقًا، حين لمح زوجته تدخل البيت، فاستأذن
ضيوفه، ودخل خلفها.. وقد لحق بهما ثلاث جوار، وبعض من
عبيد صالح، يحملون صناديق فاكهة، وصواني خبز، أحدهم دخل
بخروف لباني.

لم يكن ياسين مصدقًا لما يرى، غير أنه كان سعيدًا بما يرى،
أخبرته زبيدة بما حدث لها أثناء ذهابها لوالدها أولاً، ثم مقابلتها
لـ"هلبت" وموقف صالح.

- صالح..

- ياسين..

في الوقت الذي نطق فيه ياسين باسم صديقه القديم، كان صالح ينده على اسمه، وهو يدخل إلى ساحته، الصوتان تداخلا بعضهما ببعض، همَّ ياسين ليستقبل صالح.

كان صالح واقفاً بمنتصف ساحة الضيوف، بصحبته عربة يجرها حصانان، فوقها فرش من ريش نعام، وكراسٍ فخمة، ووسائد، وفي الساحة عبد يضع الفول للقعدان في أحواض البهانم، وآخر يخدم أتربة الساحة برش الماء، كان صالح يسلم على الضيوف الأربعة، وهو يخاطب ياسين الذي كان داخلاً للتو: يا رجل، انتهى الفرح منذ عشرة أيام، أنت تُعمر مكاني، وتترك مكانك بهذا الشكل.

ثم وجه حديثه للضيوف:

- استعرت هذه الأشياء من ياسين أثناء إقامتي فرح ابني، والفرح انتهى، والآن يعود كل شيء إلى مكانه.

وجد ياسين نفسه مضطراً لمجاراته في الكلام.

- عندي مثل عندك يا صديقي، أماكننا واحدة.

مبتسماً، نظر أبو زيد إلى يونس، ليهمس له: الرجلان لا يجيدان الحيل، لنرى.

جهزت زبيدة بمعاونة الجواري، تسعة أنواع من الطعام، حملها بعض من عبيد صالح، ممن تركهم للخدمة قبل أن يستأنن ويرحل، إلى الساحة، أشرف ياسين على رص الصواني، ثم دعا ضيوفه، للتفضل بالأكل.

وما إن هم أصحاب الملامح البيضاء الثلاثة ناحية الطعام، حتى نظر إليهم رابعهم الأسود، وهو يحدث ياسين، سبال بنز الماء: نشكرك يا أمير على حسن ضيافتك، في الحقيقة لسنا بجوعى، فقد أكلنا قبل أن نراك على البنر، ولا يصح أن يوزل طعام على شبع.

ماذا؟، يُفاجأ الرجل، تطارده مشاهد سريعة للبنر والدعوة والقعود، أذناه تعيدان عليه ما سمعه من زوجته عن أمين، وهلبت وصالح، من أجل أن يستطيع أن يقدم لهم واجب الضيافة، يراجع نفسه، يحاول أن يستفسر منهم عن السبب: ألا يعجبكم الأكل؟

يكشف عن الخروف الموضوع على الصينية الكبيرة المليئة بالأرز: طعام شهى.. هيا يا رجال، اقتربوا.

فيكرر الغريب الأسمر موقفه.

- لا يصح لنا أن نأكل على شبع.

اندهشت زبيدة أيضاً، حين عاد إليها ياسين بالأكل محبباً، وظلت مندهشة طويلاً، وهو يصف لها هؤلاء الغرباء، الأسود الممسك في يديه ربابة، دون أن تكون هيئته هيئة شاعر، والفرسان الثلاثة، الذين يطيعونه بنظرة.

تطلب منه زبيدة أن يأكل هو، قبل أن يعود إلى ضيوفه، لكن إذا كان ضيوفه لم يأكلوا.. فهل يأكل هو؟

- لماذا أنت هكذا يا ياسين؟، أفعلمها معك الزمن؟ أم دعا عليك أحد الوالدين؟ كيف تكون سبأً على بنر ماء وتمتلك قصرًا مثل هذا؟ وكيف تمتلك قصرًا ولا تملك حتى ما يعينك على نظافته؟

زاد السؤال إحساس ياسين بالألم، ذلك الذي كان يطارده من بداية مرورهم على البنر، حاول أن يبدو متماسكاً.

- اعتقد أن ضيوفي في حاجة إلى الراحة، تستطيعون أن تناموا إن شئتم.

ثم اقترب من ذلك الأسمر، ما بين نبرة من الرجاء والياس، وهو ينظر إلى الربابة التي في يديه: استرح يا شاعر، استرح.

- ألا يتفق معي مضيبي، أن الله يرسل الأقدار بالطريقة التي

يشاء، وقتما يشاء، ليفعل بها ما يشاء، ربما كانت معك مشكلة، وربما أرسل الله معي الحل.

- حل، أي حل؟ يا شاعر، لا تضع نفسك موضع أبي زيد الهلالي.

- أو تعرف أنت الأمير أبا زيد؟

- ومن لا يعرفه.

- رأيتَه؟

- لم أره، غير أن.. سيرته يعرفها كل العرب.

- ابن، لتحك لي حكايتك، وسأحكي لك عن أبي زيد وفرسان بني هلال، فلقد مررت عليهم في طريقي، وقضيت معهم عشرة أيام بلياليها.

يتغلب عليه إحساس الحزن.. فيصمت، وكأن صمته.. كلاماً.

- ما بك يا رجل، تكلم.. اخرج ما في صدرك.. وهون عليك..

أحك.

- أحكي لك؟.. طلبك موجه يا شاعر، الحكايات لا تليق سوى بالعواجز، عموماً، لا بأس، أنا عاجز الآن.. ولم أعد أمتلك سوى الحكايات، سأحكي لك.. بشرط أن تتعهد لي أولاً، ألا تحول قصتي

إلى أغنية على ربابك تجوب بها البلاد.
وتعهد الشاعر.

ليلة ما، كان جدي في فراشه، حين سمع صرخة أمه وزيرية،
فزغ، نزل مسرعًا من البيت، قفز السلالم، واجتاز السقيفة، تبعته
جدتي للخارج، وخلفهما كان يهرول عمي محمود، تاركين عبد الباقي
وحده في البيت، نائمًا.

ليلتها، لسع وزيرية ثعبان.

مص جدي السم بقمه، ووضع الشيخ، جلس بجوارها علي أب
إسماعيل، يتلو من القرآن، حتى نامت، وخرجت الشمس للناس.
عادت يامنه أم إبراهيم إلى بيتها، يسبقها محمود بخطوات، كان
أول من يرى عبد الباقي واقفاً يتبول على كوم الرماد. فصرخ:
- الحقي يا أمه، عبد الباقي اتطهر.

بخوف ولهفة، فتشت في جسده، نعم اطهر!

فعتها الملائكة. مثلما فعلتها "قبل العملية"، مع جارنا بدوي أب
موسى.

تركته أمه وحيدًا في البيت أيضاً، وحين عادت وجدته "مطهر"،
ممسكاً بنقود جديدة، قال بدوي أب موسى إن امرأة تلبس الأبيض،
أعطته نقوطاً.

أرسل جدي لعلي الداوي، ليفتي في الأمر، فقال الرجل إنه لا
يعرف، ثم أعطاه مرهم، يواجه به الحبوب التي نبتت فجأة بين
فخذي طفله.

وبعد أيام، غابت الحبوب.. وغابت الطهارة أيضاً، وعاد عضو
عبد الباقي كما كان.

لم يشرب لبن الجمال، حتى تثبت. هكذا أفتى الناس.

وجاء علي الداوي، ليظهر محمود وعبد الباقي، كانا كبيرين،
محمود بالغاً، شعيرات كثيفة، نبتت بين فخديه.

- يا جدة، أنا لم أر الملائكة التي تتحدثين عنها قط.

كان ياسين واحداً من أثرياء هذه البلدة، يمتلك من العبيد والجواري العشرات، ومن الإبل والماعز ما لا يعرف عدده من كثرتة، إذا تحدث.. أنصت الناس، وإذا ضحك.. ضحكوا معه، له في السياسة.. كلمة، وفي الاقتصاد.. رأي، حتى كرهته حاشية السلطان.

ويوماً ما، أثناء رعي عبيده للإبل في الصحراء، نشبت معركة بينهم وبين عبيد الملك سالمان، ملك القرية، بدأت بقتل قاعود صالح بعد أن ضل طريقه إلى مرعى الملك، وانتهت بقتل سبعة من عبيد الملك، وحصول عبيد ياسين على كل الإبل والماعز.

غضب الملك مما حدث، ونفخت حاشيته في غضبه حتى أشعلوا في قلبه نار الانتقام، وفي عقله ضرورة التخلص من ياسين، إذا كان عبيده قتلوا عبيد الملك اليوم، فسيفتلون الملك ذاته غداً.

طاف المنادي بشوارع المدينة، يطالب النساء والرجال والأطفال بالخروج من بيوتهم إلى الساحة الكبيرة، ليشهدوا بأعينهم شنق ياسين، فقد حكم عليه الملك بالإعدام، حتى يجعل منه عبرة للناس.

غير أن بعضاً من علماء ومشايخ القرية اعترضوا، قتل ياسين حرام، لا يجوز شرعاً، وعرف الناس فتواهم، وكثر الحديث، فأقترحت الحاشية أن يحصل الملك على أموال ياسين كلها، حتى يتركه فقيراً، وبهذا لا يكون قد تخطى رأي علماء الدين، ويكون قد حصل على حقه من ياسين.

ونُفذ الحكم.

وتحوّل الحزام الحرير الذي يلفه ياسين على وسطه إلى حبل، وتحوّلت القفاطين الثمينة التي كان يرتديها إلى خيش جمال، لم يترك له سوى بيته، وساحة ضيوفه، وقاعود.

ومن يومها وزوجته تطالبه بأن يذهب إلى جسر الفقراء، أبي زيد الهلالي، فارس العرب، الذي حارب بني عقيل، وانتصر عليهم، بعد أن قتل ملوكهم الأربعة وعشرين.

ذهبت إليه مرتين.

مرة صباحًا ولم أجده، ثم مرة أخرى بعد الظهر، قالت لي امرأته من خلف الباب: نائم، أما يصحى مع العصر.

انتظرت بالخارج، اختبأت تحت ظل جدار منزل طيني مجاور، حتى إذا خرج أحد من بيته لا يجديني، بدا وجهي لرجًا حين مررت أصابعي لأمسح العرق، بؤونة القاسي، لم أعد إلى المنزل منذ الصباح، ولن أعود حتى أقابل علي الداوي وأعقد معه الاتفاق. تحركني رغبة قوية في أن ما أريده سأحققه، سأعقد الإتفاق، هنا والآن.

الله أكبر.

اندفع ناحية بيته فور سماعي لصوت المؤذن، ثم أراجع قليلاً. سأنتظر حتى ينتهي الأذان، لأعطي للرجل فرصة لأن يعي ما سأقوله، لا مجال لأن أخسره، موافقته هي الفيصل العملي في تحقيق ما أريد.

ظللت أحدث نفسي، حتى وصلت باب بيته، أخبرتني زوجته بأنه "صحي"، وأنه "طالعك".

فتح الباب، لم يكن قد ارتدى عتمه بعد.

كانت نظرته حادة عقدت من البداية، غير أن إصراره على دخولي بيته دون أن يعرف حتى من أنا، خفف من وطأة الأمر.

على حصير بلاستيك أخضر، رصت على جوانبه مجموعة من الوسائد، جلست، بيته نظيف، رطب، طلب من زوجته أن تصنع لنا عصيراً، ثم سألني برفق، وهو يجلس: واد مين؟

- واد عطاالله أب محمد أب إسماعيل.

- محمد أب إسماعيل مين.. أب السيد؟!!

- أيوه.

وكانه يتأكد: واد الزغب؟!!

- أيوه.

ملأت زوجته الواقعة شفشق الماء، وضعت فيه السكر، عصرت لمونتين، وبدأت تقلب بملعقة كبيرة.

شربت الكوب على دفعة واحدة، لفت ذلك نظر الرجل، فأشار لامراته: صوبيله تاني يا بت.

لم أكن أعرف كيف أبدأ الحديث معه، كنت أفكر في صور علي الداوي القديمة.

دانماً أجده مع الكبار، يتردد اسمه في أحاديث الأرض، يُستخدم للتهديد أحياناً: "بكرة أبعث لعلي الداوي، وكل واحد ينام على الجنب اللي يريحه"، لا أراه في الأرض إلا وبصحبتة جريدة نخل عتيقة، يقيس بها الأسهم، ويعيد ضبط الأحواض، حوض النقر، حوض الحجازية، حوض طلحة....!

ولكل حوض قصة يعرفها، لكل حوض تاريخ.

- خير يا ولدي.

قالها علي الداوي، ليعيدني إلى ما أتيت إليه.

- عايزينك في ظهور وهتاخذ فلوسك أما تاجي!

- خللي حكاية الفلوس دي على جنب، مين هيطهر عنديكم؟

- أنا!

بيتسم، لم تستطع زوجته أن تخفي ابتسامتها أيضًا.

- طب أنا يا ولدي ما كنت عنديكم من يومين، ما اطهرتش ليه

مع عيال عمك جمعة؟!

- مش أما نكلموهم.

- وأبوك وجدك عارفين؟

- أيوه.

- طيب، رُوح، وإن شاء الله يأذن المغرب أصلي وأجيلكم.

سمعت ضحكة زوجته على الباب، وأنا أستوقفه قبل أن يدخل:

"هي أما توجع".

- تخافش، مش هتحس بحاجة. رُوح دلوك على البيت، وأنا

هاجيلك المغرب.



دخلت البيت، حافياً، أتصيب عرقاً، قابلتني أمي بأسنلتها.

- كنت فين بتهقي من الصبح؟

اندفعت للداخل.

- ماجيش اتغديت ليه؟

حتى وقفت عند الكبيرة.

- وليه مش لابسلك شبشب؟

يامنة أم إبراهيم، هي فقط من تستطيع أن تفهمني.

- يا جدة.. أنا قلت لعلي الداوي.

التفتت لي، دون أن تتوقف عن غربلة القمح: علي الداوي!

- العيال كلها اطهرت، وأنا بس اللي قاعد.

ابتسمت حتى كشفت عن أسنانها البيضاء.

- وإيه قلت له علي الداوي!؟

- قلت له بييجي يطهرني، وقال جاي مع المغرب.

أسرعت للخارج وأنا أشدد عليها: ماليش دعوة أنا هاطهر

النهارده.

سمعت امي: طب يا ولاد دا حتى أبوه مش قاعد.

في الشارع، أخبرت أحد أقراني بأن اليوم طهوري، لم يصدق، كان يسخر وهو يبلغ الآخرين، تركته لأقف بعيدًا، أراقب من يأتي من الكبار، ويجلس على مسرب الماء، تحت شجرة السنط، حرصت الا يراني أحد، فيمارس علي سلطة السخرة، مشاوير حمل أكواب المياه الألومنيوم، وخدمة كنكة الشاي التي لا تنقطع.

ابحثوا عن يخدمكم بعيدًا عني، هذا ليس يومكم، اليوم لي.

كنت أفكر في صور متداخلة، ملامح أبي حين يعرف، صورة حسن أب جمعة خارجًا من بيته، فاتحًا قدميه، ممسكًا بمقدمة جلبابه، حتى لا يلامس الجلباب عضوه، فيعطبه.

احمرت أشعة الشمس وبهتت حين ظهر علي الداوي، ممسكًا بخزرانته المعوجة، قادمًا من بعيد، هرولت في شارعنا العتيق، حتى وصلت بيتنا، كان جدي جالسًا على الدكة، جنتي على المصطبة الطينية المجاورة، أمي على باب الحوش، في يدها طبق، به غلة الحمامات.

تسحبت ودخلت في هدوء، حتى اقتربت من يامنة أم إبراهيم، لأهمس في أنها: علي الداوي.. جه!

تبتسم، ثم تضحك.. ضحكة قصيرة جدًا.

يلتفت جدي إلينا، وهو يشرب كوب شايه، ثم يعيد نظره إلى ما كان عليه.

أغمز جنتي: قوليله!

تضحك مرة ثانية، فيعود جدي بالنظر إلينا، وأثناء قوله: ويبي.. إيه فيه؟، كان قد وصل عبادي على الباب، يخبط بعصاه، ينده: "يا عبد الباقي".

دانما عبادي، إذا ما وقف على باب بيتنا نده باسم عمي الأصغر، حتى يجيبه أحد، أجابته جنتي: تعال يا عبادي!

دخل، فعزمت عليه: قعمز، صوبيله يا بت الشاي.

- أنا ماشي على طول.

يهدئ من حدة صوته وهو ينظر إلى جدي: علي الداوي بره، عايزك يا عم.

- علي الداوي!.. إيه العايزه علي الداوي؟

قفزت سلام بيتنا إلى الطابق الأعلى، لأتابع ما يحدث من حوار

لا أعرف عواقبه، تحدثت جدتي، أمي علقت، وضحك عبادي، اتفقوا على أن ما فعلته خطأ، كيف لي أن أذهب لعلي الداوي، وأدعوه لحفل ظهور لم يُعد له مسبقاً، لم يعلم به والذي حتى اللحظة؟!، كيف لطفل أن يحول رغبة اختارها إلى واقع، هم فقط من لهم الحق في اختياره؟!!

كانت آخر جملة سمعتها من حوار البيت، لعبادي، قالها وهو يمتص غضب جدي: وماله يا ولاد.. الرادل حقه يطهر!
فنظرت جدتي إلى جدي: خليه يطهر.

كان يمكن أن يعتذر، غير أن محمد أب إسماعيل لن يفعل، مجيء الرجل إلى هنا لا يمكن تعليقه بأنه "شغل عيال"، فالمعنى المقابل لذلك أن الرجل نفسه أصبح مسخرة للعيال، ولا يليق ذلك بمكانة.

جدي لم يرد أن يكسر قاعدة أن أصغر فرد في العائلة، يمثل أكبر فرد فيها.

أثناء خروجي لمتابعة ما يحدث بالخارج، واجهني جدي وعبادي وخلفهما علي الداوي.

كل مشاهد البحث عن بطولة انتهت، سيخرج المقص، ويقطع

جزءاً من عضوي، الألم، العطب، تطارنني كل الحكايات التي سمعتها عن الطهور من قبل.

أهرب؟!!

أفقت وأنا جالس على الماجور، وقد أحكم عبادي قبضته على فخذي ويديّ معاً، لا مجال حتى للتململ، أخرج علي الداوي إبرته المعوج نهايتها، أدخلها في مقدمة العضو، غرزها بسرعة ثم سحب الجلد للأمام، وأنا أصرخ، كانت يده الثانية جاهزة بالمقص، إنه يشبه مقص حلاق الحمير بسوق الجمعة، وإن كان أصغر قليلاً، أشار برأسه لأعلى: بص الزرزور.

ولم أجد الزرزور، ولم أجد قطعة من عضوي.

أنهى ياسين حكايته، وجاء نور الشاعر لأن يحكي له عن أبي زيد الهلالي وبني هلال الذين مر عليهم في طريقه، ينظر الشاعر إلى أصحابه، ثم يعود لياسين.

- أه، بالنسبة لأبي علي السلطان، فقد رأيت على بئر ماء عند مدخل بني هلال، بعد المجاعة التي لحقت بهم، يعمل مثلك، سبالاً، يملأ جرائر الماء للعبيد والأطفال وهو يغني على الأيام، أما الزغابي

دياب، فقد عرفت أنه أصبح خادماً، تستأجره النساء لقضاء بعض حوائج خيامهن.

يصمت قليلاً ثم يعود، ممثلاً للتأثر: أما أبو زيد، فقد أصابه ضرب من الشيطان، جعله هانماً في الصحراء، يطارد الخيالات. وضع الشاعر بني هلال في حال يرثى لها، كانت كل كلمة يقولها، تفقده خيط أمل ظل يمسك به، في أن يغير أحواله، وقد علق أحلامه منذ زمن، هو وزوجته، على أمل اسمه أبو زيد، الآن.. أحلامه تتبخر، تتساقط كالعصافير الميتة.

هب الرجل واقفاً، شاهراً سيفه في وجه الشاعر الأسود: لا تفال شراً على بني هلال هكذا، لولا أنك ضيفي لأخذت رأسك، ورؤوس من معك.

غير أن كلماته السابقة، كانت تتناقض مع الضعف الذي يمزق داخله، حتى إنه نادى على زوجته، سحبها من يدها، دون أن يدرك ما الذي يفعله، أدخلها ساحة الضيوف، وطلب من الشاعر أن يعيد ما قاله عن فرسان بني هلال.

تبكي زبيدة عليه، فينتصر ضعف ياسين داخله، فيبكي معها. لا فائدة من البكاء، يطلب منهما الشاعر أن يتركا الأمر لله، وأن يدخلوا إلى بيتهما، فمن هنا للصباح.. يحلها المولى.

قضى أبو زيد ليله مستيقظًا، لاحظ يونس ذلك.

- لنسافر غدًا يا خال، لا علاقة لنا بياسين ومشاكله، أمامنا سفر طويل شاق.

- وكيف أسافر وقد استنجد بي في غيابي؟!!

ظلت نفس الهلالي تحدثه طوال الليل:

تدافع عن الآخرين، رغم أنك عانيت من صمت الآخرين.

صمتوا حين رأوا الخضراء، تخرج من بيتها موصومة بالعار، وهي تحملك رضيعًا، الخضراء التي منحها الله لرزق الهلالي، لتحقيق أمله في أن يكون أبًا، بعد أن خاصمته الخلفة حتى وصل الستين، بنت مكة، الشريفة، سليلة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، التي ساوي بنو هلال بينها وبين الشرف والعفة، خرجت راحلة من بيتها، دون أن يحاول الآخرون.. أن ينطقوا بكلمة دفاعًا عنها!

ألم يفكر رزق الهلالي في معجزة الله، بأن جعل له بنتًا بعد عقم؟ ألم يفكر في أن من فعل ذلك، هو نفسه، لحكمته، فعل الأخرى، بأن جعل له ابنًا أسود؟، ألم يفكر في ذلك يوماً ما؟

وقف متشنجاً، يبكي، ممسكاً ببندقية الألية، ذراع جلاببه ممزق، الغضب تملك منه، جدي أمامه، وجدتي بجوارهما، هو يصرخ: "سيبوني أمشي، والله لأبندقه"، وجدتي يرد بحسم وعنف: "سيب العصاية يا ابن الكلب"، وجدتي بصوت الأمومة التي تسكنها: "سيب يا ولدي، إديها لأبوك".

أمي، بدت لا حول لها ولا قوة، لم تتحدث، رأيت في عينيها ما يترجاه أن يهدأ، وقفت بجوارهم أتابع، تمكن مني شعور كبير بالقلق، فلأول مرة أجده هكذا.

أي صراع ينتصر بداخله؟ الانتقام ممن تعارك معهم، أم الانصياع لكلام والده؟، لم يستمر الموقف، وقد كان صعباً، ترك والذي ببندقية لجدي، وسريعاً، التقط الخنجر الموضوع على شباك الحجرة المجاور، هرول خارج البيت، ولم يكن جدي قد أكمل حلفانه بالطلاق عليه، حتى يعود.

كان قد وصل إلى نهاية الشارع، أوقفه علي أب إسماعيل. جدي أول الشارع، وأخوه في آخره، ووالدي في المنتصف. وجدتي وأمي وأنا، نتابع من بعيد.

سحب علي أب إسماعيل الخنجر، ونزل بالكفوف على وجهه، حتى أعاده وهو يصرخ: "سيبوني، محدش شريكى"، وما أن عاد

حتى وجد جدي محمد، انهال عليه ضربًا بخرازنته.
وقع بينهما في المنتصف، رفعاه لأعلى، تركاه في الهواء، لينزل
على الأرض بقوة.
كررا المسألة ثلاث مرات حتى سال الدم من فمه، وهذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ/ عطا الله

تحية طيبة، وبعد

نحن جميعًا بخير وفي صحة جيدة ولا ينقصنا سوى رؤياكم
الغالية، ونتمنى أن تكونوا جميعًا بخير وهذا مراننا من عند الله.

أما بعد،

بلغني عن حسن علي بأن الجاموسة ماتت، وأن البقرة رمت،
وأقول بأن كل ما هو بعيد عن الإنسان كويس ويتعوض، والحمد
لله كلما جاء الشيء في المال.

أما من ناحية ملف العربية فأقول لكم الآتي:

ذهبت إلى الدراسة فوجدت المرور كله انتقل إلى مدينة السلام،
 وذهبت إلى السلام في ذات يوم الأحد 18/9/1988، ودخلت لرئيس
 القسم (نقل خفيف القاهرة درجة ثانية)، فقال: يجب أن تحضروا
 استمارة (122) من مرور قنا إلى مرور القاهرة، تملأ عن طريق
 المرور وتختم بخاتم النسر، وترسل عن طريق البريد المستعجل
 بـ 15 قرشاً على عنواني بالقاهرة علشان أرسل لكم رقم الصادر
 وعن طريقه تتابع الموضوع عندك.

أما بعد،

نهدي سلامي إلى عزيزتي يامنة أم إبراهيم، لها أشواقي وابتغلي
 شوية بلح يا بنت الحاج إبراهيم، أوعى تنسينا ومعلهش اليومين
 نول مشددة شوية وربنا يفرجها بدعواتكم.

مع إرسال خطاب الملف، ودوام المراسلة للاطمئنان

أخوكم/ غريب محمد إسماعيل

1988/9/18

دائمًا ما تداهم عقل أبي زيد مشاهد من ماضيه وماضي والده،

يبحث فيها عن معنى، كان يفكر في والده، وهو يدخل قصر الملك سالمان شاعرًا، في يده ربابته.

ألقى السلام، فأشار له الملك بالجلوس، ثم أمر له بواجب الضيافة، لكن الضيف، يشير إلى العبد المأمور أن ينتظر.

- لا ضيافة في ساحتك أيها الملك.

إن هذا يعني، طبقًا لما اعتاده العرب، أن الشاعر غاضب من شيء ما.

- ما الذي يغضب ضيفنا الشاعر، هل ضايقه أحد في بلدتي؟ هل غنى في ساحة ما دون أن يعطيه صاحبها ثمن غنائه؟!

- في الحقيقة أيها الملك، أنا عبد من عبيد سيدي ياسين، تربيته في قصره صغيرًا، وحين اشتد عودي وكبرت، هوى الصحراء أغواني، فحملت الرباب وتجوّلت شاعرًا في بلاد الله، حتى أصابني الحنين، فعدت إلى وطني، وذهبت إلى سيدي، فوجدته سبأً على بئر ماء، وعرفت أنك أخذت ماله.

- وماذا يريد العبد؟

- يريد أن تعيد لسيدة المال والعبيد.

- هكذا، ببساطة!

- نعم ببساطة، وإن لم توافَق، سيكون بيني وبينك.. الحرب.

- الحرب مرة واحدة.

انفجر الملك ضاحكاً، فشاركته الحاشية.

الحلقة الرابعة

يا طالب السعد،
من غير وعد، تعمل إيه؟!

ضحك الملك سالمان كثيرًا، ضحك على العبد الشاعر وكلامه،
وحين توقف وتوقفت من بعده الحاشية، رسم على وجهه الجدية.

- من الواضح أن سيدك يصعب عليك، لذلك.. أقترح أن تصحبه
في العمل سبألاً، أو تعال هنا في هذا القصر، سأعينك في وظيفة
كبيرة.. ستكون عبداً من عبيدي.

ثم انفجر ضاحكاً، فضحكت معه الحاشية.

ظل الشاعر واقفاً، ناظرًا إلى الملك سالمان، حتى صممت القاعة،
صممتًا تامًا.

- لتسخر كما تشاء، يقول العرب: الكلام السيئ لا يخرج من
جوف عمران.

ولم يضحك أحد.

أهين الملك أمام حاشيته، ونهاية المُلك، تبدأ بالسخرية من الملك في غيابه، وإهانته أمام حاشيته.

هب واقفاً، يملأه الغضب، تتابعه نظرات الحاشية التي فاجأها الكلام، فتبحث عن مفاجأة في الرد.

- أيها العبيد، ألقوا هذا الشاعر في سجن الخيل، غداً في الصباح..
موعد شفق، أمام الناس، ليكون لهم عبرة.

تكاثر الحراس على الشاعر، أوثقوا يديه وقدميه، وألقوا به في السجن، أحكموا غلق الباب، وبالخارج.. أوقفوا حارساً ضخماً.

دخل الليل، والهلال سلامة في قيوده، يفكر في أقداره الجارفة.

هاجرت الخضراء، لم تعد إلى مكة، حتى لا تكون عودتها سبب فتنة بين قبيلتها، وقبيلة بني هلال، ذهبت لبني الزحلان، وقد عرض عليها ملكها بأن تمنحه شرف الاستضافة، كان كريماً، عامل سلامة كما يليق بمعاملة الأمير ابن الأمير، والخضراء كما يليق بأم الأمير.

ومع بني الزحلان، تعلم الهلالي من القرآن.. العدل، ومن الفن..

الشعر، ومن الصوفية.. الحب، ومن الفروسية.. القوة، ومن الرمل
والسحر.. الحيلة، وتعلم من المضطهدين.. العطف والتضحية.

الآن هو مكبل اليدين بين ظلام موحش وذكريات قديمة، عاجز..
لا يمتلك فعل شيء، سوى التفكير في الأقدار.

غير أن للعاجزين قوة ما، تأتيهم هبة من السماء.

أفاق أبوزيد على الخضر قطب الرجال، واقفاً أمامه مباشرة،
مثلما يقترب منه.

قطب الرجال.. الخضر، واحد منهم، من هؤلاء الموجودين الغير
موجودين، ربما كان صديقاً لمن عرض على النبي سليمان، عليه
السلام، بأن يأتي له بعرش الملكة بلقيس، قبل أن يقوم من مكانه.
وقف الخضر يفك قيوده.

- ألم أقل لك من قبل، لا تذهب بقدميك إلى التهلكة.

- إنها الأقدار يا خال.

مسح على رأسه

- لتكن منصوراً، بإذن المولى، على طول الزمان.

ثم اختفى.

قبيل الفجر، كان أبوزيد متحرراً يبحث في إسطنبول الخيل عن واحد يناسبه لما هو أب، لم يجد ما يروق له من بين الخيول، حتى سمع صوت الشعتان، ذلك النوع النادر والمتوحش من الخيول، لا يمتطيه إلا قليل من الأشداء وقت الحروب الصعبة، وفي الغالب لا يمتطيه سوى الملوك والسلاطين.

كان صوت الشعتان يأتي من غرفة خاصة في الإسطنبول، غرفة مغلقة، جاء صوته مرشداً عن مكانه، شرع أبوزيد في فتح الباب، وحين فشل، حاول مرة أخرى، وثالثة مستعيناً بقوة الله، بالصلاة على سيدنا النبي، صلي الله عليه وسلم، وببركة أتباعه وأولياء الله الصالحين، حتى عزل الباب، عن مكانه.

الشعتان في الأسفل، شعره كثيف، عيناه لامعتان ومحمرتان بقوة، بجواره طعامه وماء، ينزلان له من السقف، نزل له أبوزيد.

- أنا أسود وأنت مثلي أسود، كن معي.

والشعتان، يرد بضربة قوية ألقت بسائله بعيداً.

متألماً، عاد أبوزيد إلى الشعتان مرة أخرى، ليباغته بضربة قوية من يديه القويتين، فالقوي لا يعرف لغة سوى القوة، زام الشعتان، ثم هدا، فوضع أبوزيد يديه على ظهره، ملس عليه، وبعد قليل من التودد، نجح في ترويضه وكسب طاعته.

ألقى على ظهره، سرّجًا كان ملقى في أحد جوانب الإسطبل،
وفي جيوب السرج، وضع ما لقي من الحراب والهرافات، وحمل
سيفًا، وعلق درعًا، نده الهلالي على السجّان كي يفتح له الباب.

ومنذ متى يفتح السجّان بابًا، لسجين يرغب في الحرية؟!

- وهل يُعقل أن تترك عرس شفقك المُقام صباحًا.

ضرب الهلالي الباب بحربته، حتّى نجح في فتحه، ليجد نفسه
وجهاً لوجه في مواجهة السجّان.

- أنت لا تريد الهرب فقط، أنت أيضًا لص، تريد سرقة الشعّتان.

ترجاه أبو زيد أن يتركه، ولكن:

- وهل ترضى - أنت - أن يهرب لي سجين من زنزانتي؟!

شرع السجّان بيده على وجه أبي زيد، بكل ما أوتي من قوة.

أفاق سريعًا من الضربة، تجهّم وجهه، وساءت ملامحه، وبدت
عيناه محمرتين، وصوته مخيفًا، كان الأرض تهتز من تحت قدميه،
ومن المرة الأولى، من الضربة الأولى، أوقع أبو زيد السجّان أرضًا
بعد أن وقع من فمه أربع أسنان.

اقترب الفجر، ولم تتوقف الأغاني، كان الصوت عاليًا، حاولنا معه أن ننام، ولم نعرف. وقف فجأة سلامة أبو أحمد، وهو ينفخ، كان وجهه محمرا، هرول ناحية الجدار القصير الذي يفصل بين بيته وبيت الجارة، وحسن الأسمر يرقص في الكاسيت "مراري منك يا مراري"، والمرأة ترقص معه.

: يا وليه ما عاوزين نناموا.

: إنت مالك يا راجل يا....

استفزته الكلمة الأخيرة، أمسك بلوكة أسمنتية، وألقاها عليها. فانكسرت، وانكسر من الجارة. أربع أسنان، التفتهم في يدها، قبل أن تصرخ.

هز صراخها المنطقة بأكملها

ظلمت خانقا من استدعاء الشرطة، لم أخرج من تحت البطانية، حين سمعت السرينة، خرج سلامة أبو أحمد، ركب سيارتهم، ومضى معهم.

ذهب إبراهيم أبو عمران ليحل المشكلة.

- دا كسر سناني يا أبو عمران.

- هاتيهم.

أخذ أبو عمران الأسنان الأربعة من الجارة، وأقنعها أن تذهب معه إلى "قسم رابع العريش"، لتتنازل عن المحضر.
دخلا للضابط المختص.

- "يا باثا إن كان عن اتنان، آهن (ومد يده بالأسنان)، هنكبهانها هي هي، وأهي دايه تتنازل عن امحضر".

كاد الضابط أن يقع من الضحك، ضحك من منطلق أبو عمران، ومن طريقة نطقه للكلمات، التي تفتح باب البهجة على أذن من يسمعا.

- والله يا شيخ، حتى لو مش هتتنازل عن المحضر لأخليها تتنازل عن المحضر.. عشاتك.

تنازلت الجارة، وخرج سلامة أبو أحمد.

دخل الصبح، حين دخل أبو زيد إلى ساحة ياسين، حيث أولاد أخته الثلاثة، يوزع كعادته الدهشة، سأله مرعي: ذهبت شاعرًا، وعدت فارسًا يا خال، تمتطي شععتنا مرة واحدة، ماذا حدث؟

والخال، مراوغة كعادته، ساخرًا من أقداره، يخبرهم بأنه ذهب إلى الملك سالمان، وأشعر وغنى على الربابة، فقرر الملك أن يكافئه على السعادة التي منحها له ليلة أمس، بالشعتان.

كان المنادي، يجوب البلد منادياً، يجمع النساء والأطفال لمشاهدة شنق الشاعر، عبد ياسين، في الوقت الذي دخل فيه السجان قصر الملك سالمان.

- ليس شاعرًا يا مولاي.. ليس شاعرًا، ولا عبدًا.

- عن تتحدث؟

- عن ملك الموت، الذي سرق الشعتان، وينتظر مولاي الآن، في ساحة الحرب والقتال.

خرج الملك سالمان، محاطًا بعبيده وفرسانه، وحين وصل إلى ساحة الحرب وجد الشاعر في انتظاره، وللمرة الأخيرة، يعرض الشاعر عليه أن يعيد المال إلى ياسين، دون الحرب، وللمرة الثانية يسخر الملك: "يا عبد ما لك والحرب؟، احترس حتى لا يصيبك السيف الذي تمسكه، فهو لم يُصنع للشعراء".

أشار الملك، لفارسين أن يتقدما، وفي بغتة، أوقعهما الشاعر تحت الشعتان، أحدهما على يمينه والآخر على اليسار، فوق كل منهما حربة، يلمع ضوءها في عينيها.

- لا تضيع وقتك ووقتي أيها الملك، لنختصر المسألة وتتقدم أنت للمعركة حتى لا تخسر كل عبيدك.

- إنني أقدمهم رافة بك، لأعطيك فرصة للحياة والغناء في دواوين الملوك والأسياذ.

أقلت الشاعر الفارسين من تحت حربتيه، وهما يعودان إلى صفوف عبيد ملكهما، عيونهما منكسرة، ينفضان تراب ملابسهما، الشاعر يتحدث:

- لتكن أرض المعركة هي الفيصل، تقدم، وأرني قدراتك.

التفت الملك يميناً ويساراً، وأشار بسيفه لفارس تقدم خطوة للأمام، أشار لكي يعود.

- يتأفف الملوك من مواجهة العبيد في العادة، غير أن أمي قالت لي وأنا صغير، لا تتأفف، حتى تدخل الجنة، وأنا أريد الجنة.

ضحك، وضحكت معه الحاشية.

- لن تحكي لك أمك مرة ثانية، فقط ستبكي عليك اليوم والأيام المقبلة كثيراً.

- بل أمك من ستفعل ذلك، أيها الأسود اللعين.

قالها الملك سالمان ثم اندفع إلى وسط ساحة المعركة، في مواجهة اللص الشاعر، العبد الأسود، أهل القرية واقفون، العبيد، والنساء والأطفال.

حصاناهما.. كالطير يحومان حول بعضهما، اشتبكا، تناحر سيفاهما، ثم تفرقا، ثم من بعيد رمى الملك سالمان، حربة على خصمه المجهول، مال الخصم، فهافت الحربة بعيداً عنه، ثم رماه بالثانية، ثم الثالثة.. وكان نصيبهما ما حدث مع الأولى.

- لقد أضعت ثلاث فرص، تركت لك الأولى من أجل الله، وتركت الثانية من أجل المصطفى سيدنا النبي، عليه الصلاة والسلام، والثالثة سامحتك فيها من أجل سيدي ياسين.

اندفع الهلالي بالشعتان الذي يركبه، تلقف سالمان من فوق حصانه، وبحركة مفاجئة، أوقعه أرضاً، هكذا ببساطة.. دون أسلحة، ثم وقف فوقه بالسيف، استعداداً لإنهاء معركة قصيرة.

في الموت، كل الناس تخاف.

- خذ مال سيدك، واطركني.

- لا علاقة لي بسيدي الآن، اعطني الطوق والنيشان إن أردت حياتك.

وأراد الملك حياته، وحصل أبو زيد على النيشان والطوق اللذين كان يرتديهما، الحكم وكرسي الحكم، أخذهما الهلالي وتركه مقتولاً بالهزيمة دون أن يقتله، وكالعادة.

هلل الجمع للفائز، وانتقلت الحاشية إلى جوار المنتصر.

ووقف الهلالي في منتصف الساحة، وسالمان لا يقوى على الوقوف، وقف يخاطب العبيد: "من كان في قلبه حب لياسين، فليأت معي"، الغالبية من عبيد ياسين، تقدموا، ثم مشوا وراءه، فأمرهم بأن يحضروا كرسي السلطنة، أن ينقلوه إلى قصر ياسين، وأن يأتوا معه بالمال الذي استولى عليه سالمان.

جرت الجوارى إلى قصر ياسين، حاملات الخبر إلى زبيدة زوجته، مهلات ومباركات بعودة الحق لصاحبه، وقف ياسين مع الغرباء الثلاثة في ساحة الضيوف، لم يكن مصدقاً ما تراه عيناه، عودة العبيد، المال، والحياة، حتى إنه مشى هانماً ناحية الصحراء الممتدة، أعادوه ثانية، في أجواء فرح، أدخلوه الحمام، والبسوه القفطان، وعاد إليه حزامه الحريري.

وجاء صالح، وجاء أمين، والشاعر يسأل ياسين: أنا أم أبو زيد الهلالي؟

- والله ما فعلته، هو نفس ما نسمع عما يفعله أبو زيد.

- أنا أبو زيد.

يأخذه ياسين بالأحضان، فيسلمه أبو زيد الطوق والنيشان، ومناذي المدينة يمر على أهلها، وليعلم الحاضر الغائب، ياسين هو الملك.

أما صالح، فتم تعيينه وزيرًا جزاء معروفه مع صديقه، بينما كان جزاء أمين أن يبقى في قصر الملك الجديد 30 يومًا، ينظف الساحة، ويرش الماء مع العبيد.

ودع أهل المدينة أبا زيد وأولاد أخته بالدموع، بعد أن رفضوا المبيت لليلة أخرى، فأمامهم سفر طويل إلى الغرب.

- أتحبها يا خال؟

- عنن تتحدث يا يحيى؟

- عن الصحراء، تلك التي كانت تأخذك منا شهوذاً، كيف تحب جفائها ووحشيتها؟

- وحشية.. نعم، يعيش فيها الناس كحملان ما بين راع وذنوب، لكنها ليست جافة، إن اتساعها هذا، يملأ العقل بخيالات كبرى، ويدفن في القلب سحراً ما، ونحن لا نساغر الصحراء بحثاً عن أشجار خضراء، إنما نساغر إليها بحثاً عن المغامرة، وفي بلادنا.. المغامرة، حياة.

وبينما يتحدثون، في الطريق.. شاهدوا عبداً يرعون إبلاً وأغناماً، توقف الفرسان الأربعة عندهم، تناولوا الماء ولبن الإبل، وسألهم الهلالي عن صاحب المال الذي يرعونه.

- للخفاجي عامر.

- سمعت عنه، سمعت عن كرمه، و... هل تبعد كثيراً بلد الخفاجي عامر عن هنا؟

- إن كانت جمالك ضعيفة فتصلون في ثلاثة أيام، وإن كانت قوية تصلون في ليلة ونهار.

وبعد ليلة ونهار، وصل الفرسان.

- عمك و عيال عمك هنا .

قفل صغير، يقف على رزة يمسك بها مسماران، على صاج محاط بخشب رخيص.

كان أول ما فاجاني حين فُتِح الباب، صورة مهترئة لحمام، يصاحبها رائحة نصف كريهة. لم يكن حمامًا بالمعنى المعروف، بعض من الطوب الأسمنتي المفرغ، بني في مربع وصعد لارتفاع 60 سم تقريبًا، فتحة في منتصفه، ومكان فارغ لباب على جانبه، تعمل بديلًا عنه قطعة قماش، تدخل المياه عبر صفيحة أو جركن، ويتم التعامل معها فيه بـ"الكوز".

حمدت الله أنه لم يكن مثل حمام ناس أب بر.

في زيارة عابرة للإسكندرية، على هامش أحداث زفاف خالي رفاعي، لم أتخط الثانية عشرة، يوم جمعة، أخذني جدي محمد أب إسماعيل وآخرون إلى شقة ناس أب بر في العصابة، للسلام عليهم، كنت أنتظر الوصول بفارغ صبر، لدخول الحمام.

لا تزيد مساحة الشقة، إن صح الاسم، عن 60 مترًا، حجرتان وحمام، في دور أرضي بحارة ضيقة لا يمكن الدخول إليها إلا مشيًا

على الأقدام، يعيش فيها ما يقرب من 20 فردًا، عانيت وأنا أبحث عن موطن قدم، عانيت أكثر حين نظرت للحمام.

واحد عارٍ تماماً يستحمي، بجواره آخر.. يتبول، وثالث بالقرب منهما، يتوضأ على الحوض، الجميع في مشهد واحد، الحمام بلا باب.

ضحكوا حين علق جدي على الأمر، وضحكنا، حين سرد أحدهم السبب.

- يا خال محمد، كلنا شغالين في طبليّة خرسانة واحدة، يعني أما نصحوا مع بعض، ونرجعوا مع بعض، وكلنا ناس أب بر في بعض، فشيّلنا باب الحمام، وكل نفر يقضي مصلحته.

حمام حوش أب كرشان، كان أفضل، بإمكانني أن أميز الشخص الموجود داخله، ليس في النصف الأعلى من الرجل، عورة.
كان موغوربي أب زرزور. أول من استقبلني، لأصبح عضوًا جديدًا في الحوش.

أجمل ما في حوش أب كرشان.. لسعة برد الفجر التي تجعلني أتمسك بالنوم أكثر، أشد البطانية نهاية أغسطس، وأنا ملقى على

الرمال أمام حجراته السبع، وشجيرات ليمونه، التي يخترق أوراقها ضوءاً مريخاً، ليس فيه ما يزعج النائم.

وأسوأ ما فيه.. لسعة النمل الصغير التي تجعلني أفيق تماماً في نفس الوقت الذي شددت فيه البطانية!

كانت تأتي مياه الشرب عبر جراكن، تنقلها سيارة تشبه سيارة المدن التي تسقي أشجار الشوارع، كابينة قيادة أمامية، وتلك حديدي كبير من الخلف بـ"خرطوم"، تأتي حي الصفا كل يومين، ما بين السادسة والثامنة مساءً. الجركن بربع.

انتظرها، أمام الحوش، بالشارع، أرص بجواري الجراكن الأربع الكبيرة، وأجلس على خامسهم، أستمع لتمثيلات الإذاعة عبر راديو أحمر صغير.. يضمّد جراح وقوعه المتكرر، أستك أسود ملفوف حول جسده.

أفكر، كل مرة، في كيفية إقناع السائق أن يملا لي الجراكن الخمسة؟، كيف أثنيه عن مقولته الشهيرة "جركن واحد مفيش غيره"؟.

أرقنا كثيراً، نحن المعتادين انتظار وصوله، في كل مرة يأخذ مجهوداً طويلاً من المحايلة.

أمسك أحدهم برأسه ذات مرة وصدمها في التنك الحديدي، وكأنه كان ينتقم لنا جميعاً، تغير بعدها البائع، بعد أن توقف المضروب عن العمل.

في حوش أب كرشان، تأتي المياه المالحة، كل خميس عبر مواسير بلاستيكية سوداء تدخل البيوت، يحتفظ كل سكان الحي - ونحن منهم- ببراميل بلاستيكية كبيرة، براميل حديدية مطلية بـ"البلك" حتى لا تصدأ، لتخزين ما يحتاجه الأسبوع من ماء للاستحمام والغسيل.

خارج ديوان الخفاجي عامر، وقفت العربات التي تجرها الخيول، لتوصيل من يريد إلى المكان الذي يريده، وبداخل ساحة الديوان، منات الكراسي، وعشرة من العبيد يخدمون الضيوف.

جلس أبو زيد وأولاد أخته يتأملون المكان، وكانت جوابة، ابنة الخفاجي، تنظر من مشربية قصر والدها المجاور، ترتدي حلقاً من الجواهر يبرق من فتحات المشربية الخشب، لمحت في البداية الأسمر، وما أن وصل نظرها إلى يونس، حتى توقفت، ريقها جف، إنه ساحر.

حين أفاق، ندهت على العبد بلال، وأشارت له من الشباك، بأن يقدم الضيافة، للغرباء الأربعة الذين يجلسون.

في أكواب من عجب، وعلى صينية من ذهب، حمل بلال الماء، قدم يحيى ومرعي ويونس على أبي زيد، وقد حسبه عبد من العبيد،

حتى نظر الفارس الأسود في عينيه، نظرة حادة، فوَقعت الصينية من بين يديه، ووقع معها كوب ذلك الأسود الغريب.

تناول العبد الصينية وما وقع منها، وعاد مهرولاً إلى سيدته، يعرب لها عن غرابة هؤلاء الضيوف، خاصة رابعهم الأسمر الذي يمسك بربابة، فتعلن له جوابة، الهانمة في صورة يونس، أنها ستجهز بنفسها طعام الغرباء.

- ولا يا ممدوح تعال هنا هوه.

- تضربيني يامه.

- يا ولا باقولك تعال هنا هوه.

وممدوح يرد أيضاً: "تضربيني يامه".

كان خروج هذه السيدة المكتنزة عبر البلكونة المقابلة لحوش "أب كرشان"، التي تكشف مكانه، ودخول صوتها المسرع في خناقة مع ابنها الممتلى، يعني الحرمان من حلاوة الكسل الذي يليق بصباح يوم إجازة مهم، يوم الجمعة.

يوم العطلة الرسمية، نادرًا ما يخرج فيه أحد للعمل، وإذا حدث..

بالكاد تكون "مرمة"، لا تأخذ ساعتين، تأتي بحق المطهارة أو ثمن الدخان وأكواب الشاي التي سيتناولها على المقهى، هو ورزقه.

يضع سكان الحوش، مبلغًا ماليًا بداية الأسبوع لمصاريف المطهارة، جمعية الأكل، وجبات العشاء وشاي وسكر الأسبوع، يراعي فيها سن المشارك، وقيمة يوميته، اجتمع الصنایعية الكبار والـ"عجانة"/ السكان، على أن يمسك المطهارة غريب أب بهلول، لما يتمتع به من حرص شديد في اختيار أكالات مفيدة ومشبعة دون أن تفسد الميزانية، على أن تبدأ بيوم الجمعة ذاته، يوم اللحم العظيم.

- ولا يا ممدوح تعال هنا هوه.

كان صوت أم ممدوح عاليًا بالقدر الذي يدفعك، لأن تقوم وتترك الحوش هربًا منه، ظللت حائرًا قبل أن أفتح عيني وأخرج رأسي من تحت البطانية، هل أذهب للمقهى للعب الدومينو، ومشاهدة فيلم هندي؟، أم أنقل فرشتي لمكان به ظل وأحصل على قدر أكبر من النوم؟، أم أقوم لأغسل ملابسي قبل أن ينشغل حبل الغسيل؟

أفكر، كلها مهام تخصني في النهاية، المهمة الوحيدة المشتركة مع الآخرين هي غسيل المواعين.

أسوأ مهمة في المطهارة.. غسيل المواعين، هي الآن من نصيبي، في عالم تتزايد المهام فيه كلما كنت صغيرًا، لم أكن قد حصلت بعد

على لقب "عجان"، لم أرق لأن أناول مبيض المحارة خلطة الأسمنت، وأعجن له قليلاً منها بالجبس، مهارات لم أكتسبها بعد.

المقاول محمد أب مراد، اختار أن أعمل في هز الرمل، تنقيتها من شوائب الطوب والأحجار، ويومياً أجد أمامي جبل رمل، أقضي النهار معه، أهز وأهز وأهز، وما أكاد أفرح أنه أوشك على الانتهاء، حتى تأتي إليه مقطورة جديدة، تعيده كما كان وأكثر، مهنة مملة.

وأنت عجان تتغير بك أماكن الشغل، تختلف طبيعة المهام التي تقوم بها، يوم مونة ويوم جهارة، يوم وجاية ويوم داخلي، مرة كرانيش أو أخرى كلستر، ربما تدخل منزلاً به فتاة جميلة لتعمل، بالتأكيد هناك اختلاف.

شربت كوب الشاي، وأنهيت مهمتي في غسل المواعين، لأتخلص من ذلك العبء، على سيمفونية "ولا يا ممدوح تعال هنا هوه"، .. "تضربيني يامه".

الحلقة الخامسة

أمانة يا طبيب،
عليما تلحق
وهات الدوا اللي يوافق
يا ما ناس بتعرف الحق
ولجل الضرورة، توافق.

على حصانه، دخل الأمير عامر الخفاجي، نزيهاً.

نزل وترك الحصان للحارس، ألقى السلام على الجمع الموجود
في ديوانه، ومن اليمين، راح يسلم بيده على ضيوفه، واحداً واحداً،
حتى وصل إلى الغرباء الأربعة، فبدأ بمن ألوان بشرتهم بيضاء،
تاركاً الأسود للنهاية.

يا لها من لعنة!

ما أن التقت يد عامر يده، حتى ضغط عليها الأسود، وكأنه
أراد أن يصحح وجهة نظره، أحمر وجه الخفاجي، ولولا مكانته،
لصرخ من شدة الألم.

- من أين الأمراء؟

يترك الأسود يد الخفاجي.

- أشعر بأن الأمير يستهزئ بنا، وهو يصفنا بما ليس فينا، وقد رأى الرباب في يدي، نحن مجرد شعراء يا سيدي لا فرسان ولا أمراء، شعراء.. كل ليلة نبات في ديوان، نمدح الكريم، وننم البخيل، وإن كان سلامنا قويًا بعض الشيء، فلأن السلام القوي من شيم الرجال، والرجال رجال.. سواء كانوا أمراء أم مداحين.

رحب الخفاجي بالشعراء، ثم اقترح عليهم - ماداموا مداحين - أن يقيم الليلة حفلًا للاستماع إلى فنهم، يحضره كبار القبائل، بعد أن يفرغوا من صلاة العشاء.

وأمر كاتبه، بأن يكتب ويرسل دعوات الحفل.

شمس التهاني أشرقت بالنور وللأنس يدعو للحضور
شرف بفضلك داعياً ليتم لنا حسن السرور

يتشرف/ محمد إسماعيل السيد، وأولاده مبارك وعطا الله
بأبوظبي شرق.

بدعوة سيادتكم لحضور حفل زواج ابنهم
(المدثر محمد إسماعيل)

وسماع أي الذكر الحكيم من القارئ الشيخ أحمد أبو المجد عليان
ونلك يوم الأربعاء من 10 صباحاً إلى 10 مساءً

الموافق 1987 /12/8

(والعاقبة عندكم في المسرات)

مطبعة نور الدين بقنا

اتفق أبو زيد مع أولاد أخته، على ألا ينادوه باسمه الحقيقي،
اختر لهم اسم مسعود كي يخاطبوه به أمام الناس.

كان الجمع قد أنهى صلاته، وأوراده، حين أمسك الشاعر الأسود
مسعود ربابه، وبدأ يغني، بدأ بمدح النبي، عليه الصلاة والسلام،
ثم غنى عن الدنيا وعن الأيام، عن كرام القوم وصغارهم، عن
سموهم وصغانرهم، بدأ صوته جميلاً لا نشاز فيه، حتى إن أحد
الحاضرين مال هامساً في أذن الأمير عامر الخفاجي: "إذا كان
صوت العبد هكذا، فكيف تكون أصوات أسياده؟".

ثم أشار واحد من كبار القوم للشاعر مسعود بأن يتوقف عن
الغناء، ليعطي الفرصة لمن معه، مشيراً إلى الثلاثة المجاورين.

نحى أبو زيد ربابته جانباً وهو يحدثها بصوت عالٍ سمعه البعض:

- اجلسي هنا، تحملين لي الفضيحة في كل ديوان.

يغمز يحيى لمرعي، ومرعي يغمز ليونس، تانهين لا يعرفون
الخروج من هذه الورطة، هم ليسوا بشعراء، أصواتهم سيئة، ولا
أحد يستطيع التعامل مع الربابة سوى خالهم، وقبل أن ينكشف
أمرهم، مال يونس عليه، يهمس: لتفعل شيئاً، أنت تعرف، ليس لنا
في الغناء ولا الشعر.

أشار الشاعر مسعود إلى الخفاجي طالباً الحديث، فأذن له.

- لقد رحلنا من بلادنا، وزرنا مكة، وفيها قرأنا الفاتحة، بعد أن اتفقنا على أن كل واحد منا يُشعر لثلاثين ليلة، وفي رحلتنا، مررنا على دواوين كثيرة جداً للعرب، وكل واحد من أصدقائي الثلاثة، أخذ نصيبه من الليالي، وهذه أول ليلة لي، فإن أردت أن أغني سأغني، وإن لم ترد، فقد أسديت لنا معروفاً ومنحتنا فرصة لأن ننام.

غريب هذا الاتفاق، غير أن الحضور وجدوا أنفسهم في النهاية مضطرين لاحترامه، فالناس على ما ارتضوه واتفقوا عليه.

إن، ليكن الاقتراح الأول، أشار الأمير الخفاجي لمسعود الشاعر، بأن يكمل ما بدأه، بأن يغني، وغنى الشاعر حتى مطلع الفجر، وحين انتهى الحفل، وخرج المدعوون من القصر، هم مسعود ليصلي الفجر حاضرًا في مسجد ملحق بالقصر.

قبيل الفجر، وقبل الناس، يستيقظ ليغسل جلبابه ولباسه المبلولين. يكبرني موغوربي أبو زر زور بسبع سنوات، ربما بأكثر أو أقل قليلاً، منحه اسم وانل، من باب ضحك الصعابدة على بعض، فالتصق به منذ سنوات بعيدة.

ومنذ سنوات بعيدة، موغوربي.. حمار شغل.

في حوش آب كرشان، كان يخرج للعمل يومياً، ولا يحصل سوى على الأكل، ومصروف يد جنیهان، يصرف واحداً في المساء، ثمناً لكوبى الشاي على المقهى، وجنيهاً صباحاً، ثمن طبق العدس أو الفول وكوب شاي، في الموقف، قبل ذهابه للعمل.

كان خاله غريب هو من يحصل على يوميته، يدفع منها نصيبه من مطهارة الأكل، وما تبقى يرسله إلى زرزور، مصاريف العيال، وأملاً في بناء البيت بالطوب الأحمر والأسمنت.



في ابودياب، كلما خرجت للشارع باكراً إلى المدرسة، أول من أقبله هو زرزور، يقف في "مخمرة" الطين، وقدماه في المياه المتجمدة، يواجه صقيع طوبة بصدر عار، وبقايا من فائلة ممزقة، إذا رأني أنفخ في يدي لأدفئها، يضحك:

- مفيش وكل في البيت ياك؟

زرزور يؤمن أن الأكل فقط هو مبعث الدفء في الشتاء.

ومنذ أن ترسل الشمس أشعتها، وحتى تعيدها إلى أحضانها، هو في المخمرة، يقلبها، يُخرج منها الطين مع زميله سامبو، يضعها على حمالة صنعها من شكاير الكيماوي، وصنعها لها يدين، يحملاها لمكان صب القوالب.

جالسًا على قدميه، يمشي زرزور للخلف، في يده مستطيل خشبي، وبجواره جردل ماء، يُبلل الطين، يضيف التبن، ويصب القوالب في صفوف متناغمة.

لزرزور أربع حالات فقط، طوال نهاره، إما مبتسمًا، أو ضاحكًا، أو يكلم نفسه، أو يزرزور مع أولاده، أو مع شخص تعارك أو اختلف معه.

حين يحل المساء، يبحث عن أحد يدخله بيت خاله علي أب إسماعيل، لمشاهدة التمثيلة، لا أذكر أي شتاء ذلك الذي كان يذيع فيه التلفزيون مسلسل "لن أعيش في جلباب أبي"، غير أنني أذكر جيدًا بريق الأمل الذي يتلألأ في عيني زرزور، وهو يشاهد قصة صعود "عبدالغفور البرعي" مع كل حلقة جديدة، شيء ما كان يربطه بشخص عبد الغفور البرعي، شيء أكبر من مجرد متعة متابعة تمثيلية، لقد وجد شخصًا يرتدي ملابس المهلهلة، يجلس على الأرض.. مثله، وفي النهاية ينتصر.

عبدالغفور البرعي انتصر، أما زرزور.. فمازالت قدماه تغوصان في طين المخمرة.

لم ينجح في أن يلحق أيا من أبنائه السبعة بأي مدرسة، ربيع الصغير، ابن امرأته الجديدة، الذي يتلعثم في النطق، ذهب لثلاثة أعوام ثم توقف. كان آخر مبلغ رأيت زرزور، يحصل عليه مقابل

بيع ألف طوبة، هو ثمانين جنيهاً، ربما في 2009.

يصلي دائماً، يخطئ في الأذان حين يمسك ميكروفون الجامع
المقابل لبيته ليؤذن.

الله، وأكبر، تظهر الواو جلية لمن يسمعه في الفجر.

صلى الفجر، وفور خروجه من المسجد، وجد الشاعر رسولاً
يمتطى هجيناً، ملامحه تقول إنه أعجمي، ممسكاً بلفافة جلدية، رسالة،
بدا لتوه واصلاً من رحلة سفر، ألقى مسعود عليه تحية الصباح،
فردها متجهماً متعجباً.

- صباحك مثل وجهك، اذهب وأيقظ لي الأمير خفاجي!

حاول الأسود أن يعرف السبب وراء طلب الرسول أن يقابل
الخفاجي، فرفض، طالبه بأن يطلع على ما يمسكه من رسالة، فرد
ساخراً: منذ متى مكاتيب الأمراء يقرأها العبيد؟!

ملا الغضب وجه الشاعر، كاد يلتصق به، محدقاً في عينيه،
حتى وقعت الرسالة من يده. نعم.. من النظرات ما يهز، ما يجعل
الأخر يفقد السيطرة.

التقط الشاعر الرسالة، وقرأ ما جاء فيها.

أما المُرسِل، فهو اليهودي الخرساني، ملك العجم، أما المضمون، فيطلب من الأمير الخفاجي دفع الجزية، على أن يرسل له مع عشر المال، زيادة تسعين جملاً، وتسعين حربة وتسعين سيفاً، وتسعين عبداً أصحاء، وتسعين أردب قمح، مع أردبين حنة، وتسعين طربوشاً.

وهناك أمر آخر، إنه يريد أن تأتي معهم العايقة جوابة محاطة بتسعين من الصبايا.

وفي النهاية، مهلة من الخرساني، بالدفع خلال ثلاثة أيام، وإلا سيأتي الوقت الذي يُقال فيه، إنه كانت هناك مدينة بها ناس ومبانٍ ويحكمها رجل اسمه الخفاجي!

أعاد طي الرسالة كما كانت في هينتها الأولى، طالباً من الرسول الانتظار بالخارج حتى عودته.

- وين رايح يا زلما؟

سألني مناع أب ضوي، وأنا على الباب، وهو يقلد لهجة البدو.

- رايح البحر.

عاد لصعديته:

- البحر، بحر إيه الله يخرب بيت مطنك، هي ترعة أب باشا
هتزلوط فيها، تغرق ويحسبوك علينا نفر.

يسافر الواحد منا في الأساس ليتخلص من أعباء الوصاية، اقتربت
منه:

- بص يا مناع أب ضوي، ريح نفسك خالص، أنا محدش كبير
علي في الحوش ده، كل واحد يا خالي.. كبير نفسه.

مناع، كان الأقدم في حوش أب كرشان مع جمال أب خليفة،
كثيراً ما سمعت حكايات عنهما والغربة. فمنذ تركا أبو دياب، لم
يعودا إليها.

الآن أنا في الغربة، مع مناع، أراه وهو يهتم بإفراط بشاربه،
عمي محمود أطلق عليه اسم المعلم شنب بسبب ذلك، يتكى على
نراعه إذا ما تحدث عن صنعة المحارة وأقسامها وأنواعها وأساتذتها
القدامى، مع أنني نادراً ما رأيتَه يعمل، يبدو لي أحياناً كطفل ثقيل،
وهو يعاير كل من هزمهم في لعبة الدومينو على المقهى، يقضي
نصف ليله في اللعب على المشاريب ونصف نهاره نائمًا، ولا أحد
يعرف كيف كان يدبر مصروفه.

في حوش أب كرشان، لمناع حجرة كاملة، وهو الوحيد الذي يمتلك سريرًا بمرتبة أسفنج، يضع شنطة ملابسه تحته، وقد ألصق مجموعة من الصحف على الحائط، ودق عليها المسامير في صف شبه منتظم، ليصنع شماعة يعلق عليها جلابيب الخروج، معه تلفزيون أبيض وأسود، ولديه كوب شاي زجاجي وطبق أكل صيني يخصاه فقط، عكس باقي السكان، حيث يكتفي الواحد منا بـ"كليم" من سوق الخميس وبطانية جيشي إن لم يأت ببطانية من البلد، وشنطة ملابس صغيرة يدق لها مساميرًا إن وجد مكانًا سليمًا على الحائط، ليعلقها، ويأكل مما يأكل منه الجميع فيما يأكل منه الجميع.

كان يحرص مناع على هندام جلاببه وعمامته البيضاء، ينزل من حي الصفا يلقي بالسلامات على أصحاب الدكاكين ومحلات البقالة حتى يصل إلى مقهى أبناء أسيوط، يتباهى أمامي بمعرفتهم له، سعيدًا وهم يبادلونه: اتفضل يا معلم مناع.

وقف مرة يحك رأسه من تحت عمته التي يلفها على الطريقة البدوية، قائلاً بطريقة هادئة:

- ما تولعلنا بصاية يا بو عطا الله واعملنا دور شاي.

- حد قالك إني خدام اللي جابوا أبوك.

تحاشاني بعد ذلك بدعوى أني "غلأط". واليوم يسألني "رايح

فين"، وأنا أقول له: "كل واحد يا خالي كبير على نفسه".

لم تعجبه طريقي، ولم اعطه الفرصة للتعليق، هرولت سريعاً إلى الخارج، مررت على موعربي أب زرزور في المقهى، أقنعته بأن يترك الفيلم الهندي الذي يشاهده، أن نذهب إلى البحر، سادفَع له الأجرة.

ألقينا بأنفسنا في السيارة المرسيديس القديمة، أمام مسجد الرفاعي، ظل سائقها ينادي "بحر.. بحر"، حتى اكتملت ومضى.

ظل موعربي يحرس ملابس مرة، لأطيش في المالح، وأحرس ملابسه مرة ليطيش. ثم تركنا ملابسنا، بعد أن تجردنا شيئاً فشيء من هواجس السرقة.

جلسنا على الرمال، نصنع بيتنا، نحكي عن المعمار والغربة وأبودياب.

سألني: مين أبودياب اللي اتسمت البلد على اسمه؟

كان موعربي خائفاً من خاله غريب، اتفق معي على أن أدخل قبله إلى الحوش، لأعرف ما إذا كان غيابه قد أحدث مشكلة أم لا؟!، هل عاد خاله غريب أم لم يعد؟، على أن أخرج له في جميع الحالات، لأبلغه بالأمر.

لم أخرج. كان هناك زائر جديد، وجوده في حد ذاته حدث جدير بالمتابعة، لوحمر.

لوحمر هو اللقب الذي غاب بسببه اسم صاحبه الحقيقي، البشرة المحمرة والشعر الأصفر، ومعهما شهرة سيئة. كان يجلس بأدب مبالغ فيه، يقول للجميع "يا عم"، يحاول أن يبدو جادًا، قام ليصلي المغرب، ومع ذلك، كل ما يسيطر على عقول الموجودين، إنه.... والعياذ بالله.

كل واحد كان يفكر في لوحمر بمنظوره، من كان يفكر في الانفراد به، ومن كان يفكر بأنه لعنة في المكان ونجاسة تمنع الرزق وتغضب الرب، ومن كان يفكر في سمعة الحوش أمام الناس، مثل مناع أب ضوي.

قال جمال أب خليفة يخاطب لوحمر، وينظر لمناع:

- قوم يا لوحمر دخل شنطتك، ونومتك هتكون هنا.

وأشار لمكان قريب من المكان الذي ينام فيه.

- عشان تبقى تحت عيني، والتزم.

كان عم جمال أكثر تسامحًا، هادئ الطباع والصوت، غير أنه يتحول إلى كائن آخر إذا نام، لم أر شخصًا طيلة حياتي غيره ينام وعينيه مفتوحتين، وفمه أيضًا.

بموافقته على بقاء "لوحمر" في الحوش، أنهى باب المناقشة في هذا الموضوع، هذه الليلة.

استيقظ عامر الخفاجي، همَّ خارجًا، منزعًا، سانلاً الشاعر عن الأمر الملح الذي دفعه لطلب مقابله بعد أن دخل في النوم. والشاعر يخبره بأنه يحمل بشرى حسنة، وأنه يحتاج مكافأة ثمناً قبل أن يزفها إليه.

هل يمزح الشاعر؟ غير أن الخفاجي، ليفهم بسرعة أكثر، لم يتوقف كثيرًا عند الطلب، أشار لواحد من حراسه، فأعطاه كيس مال، فسلم الشاعر الرسالة إلى الخفاجي، وراح يتابع ملامحه، وهي يتسلل إليها الحيرة والألم أثناء قراءتها، حتى وصل إلى نهايتها، فجلس على كرسي مجاور، بدا منهازًا.

- هل الأمير بخير؟

يشير الأمير بيده لهذا الشاعر حتى يتوقف عن الحديث، والشاعر لا يتوقف.

- ماذا في الرسالة أيها الأمير؟

- في الرسالة ما يفقدني ابنتي، اليهودي الخرساني جُن، يريد جوابة أو الحرب.

- الحرب والألم هما الثمن المحتوم، الذي يجب أن نستعد لدفعه دائماً.. من أجل الحفاظ على شرفنا أيها الأمير.

- لكنني لا أستطيع الحرب، أنا غير مستعد لها.

- اليهودي يريد ابنتك، إما بقوة فرض الرأي أو قوة الحرب، النتيجة واحدة يا أمير، غير أن في خوض الحرب عن الشرف.. شرفاً، حتى لو انتهت بالهزيمة. أنت عربي، والعربي لا يربي الخنازير التي لا تغار على زوجاتها وبناتها، يصاحبه الجمل، أينما ذهب، لأنه لا يرضى على ناقته أن يأتيها آخر، فاقد الشرف أسوأ من الرجل الميت.

بدا الشاعر الأسود متحرراً من اللغة الرسمية لمخاطبة الأمراء.

- مت يا عامر، ذلك أرحم.

وبعد قليل من صمت، سحب الشاعر الرسالة من يد عامر الخفاجي، مزقها، ثم أتى بورق وأقلام حبر، سائلاً الخفاجي: ماذا أكتب أيها الأمير، طانع أم عاصٍ؟ عاصٍ ليس كذلك؟

بدا الخفاجي مرتبكاً.

- وكيف لبيض أن يلاطم الأحجار.. يا شاعر؟

- وكيف لمسلم أن يطيع يهوديًا.. يا أمير؟

لا شيء أضر على أهلك وأمتك، أكثر من طاعتك لأعدائك،
وخوفك ضرهم، وصبرك على ظلمهم، وتجرك العار منهم، إن
قدمت الطاعة فلن تجنبك شر عدوك، ستقدم معها كرامتك وشرفك،
والشرف.. لا يتم برضا الأعداء، لأن الحق فيه يُؤخذ قسرًا بلا
رضاهم.

يقاطعه عامر بقوله: اكتبني عاصيًا!

وكتب الشاعر.

بسم الله الواحد القهار

من الأمير الخفاجي، إلى الخرساني اليهودي
نقرتك السلام، أما بعد..

بالنسبة للحنة، فلم يعد لدينا منها أي شيء، أما الطرابيش فلم نذهب منذ زمن إلى الشام لنشترئها، وبالنسبة للعبيد فقد أصاب البلد مرض الجدري، فقضى عليهم، والجمال التي لدينا مريضة، والقمح أصابه السوس فلم نعد نحصده منذ ثلاث سنوات، أما بخصوص الصبايا وجوابة، فنحن في انتظار جيشك ليأتي للحرب في الحال.

قرأ الخفاجي ما كتبه الشاعر، وعلق وهو يعيد الرسالة إليه ليعطيها لرسول الخرساني: "طبعًا، وماذا ستخسر؟، غداً سنترك هذا البلد، ليواجه أهله الموت".

بدا على الرسول التعجل، قال له الشاعر، وهو يعطيه الرد: "سيدي لن يدفع عشر المال".

لم يصدق الرسول، طلب من الأسود أمانة، والأمانة التي يريدونها كيس من مال الخفاجي، ليثبت للملك الخرساني، أنه جاء إلى هنا، وأن عامر رفض دفع الجزية، أنه يريد تكاليف سفره ذهابًا وإيابًا، التي اعتاد أن يتحملها الخفاجي، وبدا صوت الرسول يعلو وهو يطلب مقابلة الأمير بنفسه، أو المال.

هدأ من روعه الشاعر، متعهدًا له أنه سيعطيه المال الذي يحتاجه، دون داع لهذا الصياح، عارضًا أن يصاحبه إلى خزانة المال، بجوار القصر، ليخرج له منها ما يكفي.

وسأل الشاعر الرسول إن كان معه ما سيحمل فيه المال الذي سيعطيه له أم لا؟! وفي الوقت الذي كان يجيب فيه الرسول أنه سياتخذ المال في كيس متاعه، أخرج الأسود من جيبه سكينًا صغيرًا ذا نصل، وبحركة سريعة قطع أذن الرسول اليسرى وشيء من أنفه، وبضربة واحدة على وجهه أوقع له أربعًا مما تقدم من أسنانه.

ترنح بعد أن سال الدم من فمه، يقع ويقوم وهو يبحث عن ركوبة.

كان الدم يسيل من منخاره وحنكه، وهو يجمع ملابسه الملقاة في الشارع، بعد أن أعطاه غريب أب بهلول علقه موت، كسر فيها عليه وعلى موغربي عرق خشب.

هربا من الشغل.

قال غريب أب بهلول بحروفه المتأكلة، موجها كلامه لجمال أب خليفة:

- قويا الواي يه مش هيببها لبي.

أترجم كلماته في عقلي: "قولنا الواد ده مش هيجيبها لبر".

حكى لي موغربي بعد ذلك، أن السبب الحقيقي في هروبه مع لوحمر، هو طلبات المقاول الأسيوطي الذي أخذهما من الموقف، بمعرفة خاله غريب، كان يريد مع عملهما كعجانة، أن يقوموا بحمل الرملة من الدور الأرضي إلى الدور الرابع، مع أن المتعارف عليه أن للرملة نفرا، له يومية، المهنة تقول إن العجان يجد تشوينه جاهزا.

أخذ موغربي ولوحمر شكارتين فارغتين ليعبناهما رملاً، وحين وصلا للدور الأرضي، هربا، أخذاهما على الأقدام من الريسة حتى حي الصفا.

حين وصلا إلى الحوش، كان الباب مغلقاً من الداخل، لم يفتح أحد رغم علو الخبط، مما دفع موغربي لأن ينط الحائط، وحين دخل وجد مناع ومعه امرأة، وقبل أن يفتح الباب من الداخل لـ"لوحمر"، أمسك به مناع وانهاه بالكفوف على وجهه، فهرب موغربي، وفر معه لوحمر.

حين عادا قبيل المغرب، من ميدان الرفاعي، الذي قضيا فيه نهارهما، كان مناع قد ألف قصته، قال لغريب إنه وجدهما "ناطين على بعض".



كان جالساً مع حاشيته، مسطولاً، في يده كأسه، يشاهد رقصة لجواريه، عازفات برق وغاب وعود، حين دخل عليه الرسول غارقاً في دمانه، فتوقف الغناء والرقص.

- قابلك لصوص وقطاع طرق وأخذوا منك المال؟

- ليسأل سيدي، قبل المال، عن عبده الذي خرج سالمًا، وعاد جريحًا.

- ماذا حدث؟

- لم أر عامر، أخرج لي بالنيابة عنه ملك الموت.

ثم حكى له ما حدث مع العبد الأسود الذي التقاه وأفقدته أذنه وأنفه.

كانت كلمات الرسول، تدخل أذني الخرساني اليهودي لتبخر من عقله الخمر، حتى أفاق تمامًا، ألقي بكأسه على الأرض، طالبًا فرسانه.

- ليشرب عامر من كأس المرار.

في فجر اليوم التالي، كان الشاعر مسعود خارجًا من القصر، ذاهبًا إلى المسجد، حين سمع صهيل الأحصنة، المدينة.. حاصرها جنود الخرساني من الجهات الأربع، قبل أن يصحو الناس.

وها هو عامر يستيقظ.

- دق طبولك يا أمير.. واجه عدوك، لا مفر!

يُسمى الهاللي سلامة

معالجة للحلقات من السادسة إلى العاشرة

محل صغير بشارع "كلوت بك"، نو فاترينة زجاجية، تُعرض فيها ساعات ونظارات صينية رخيصة، أسفلها.. وجدت ما أبحث عنه، أجزاء من سيرة جرمون غارقة في التراب، بالداخل، يجلس رجل يدخن الشيشة، ملامحه المتجهمة تقول إنه في موقف سيئ مع الحياة.

عرفت منه، أنه سيد نصر، صاحب شركة "فلفل فون"، كانت إجاباته مقتضبة، لم أرد أن تشكل أسنلتي عليه شيئاً من ضيق، حصلت على النسخ التي تنقصني. وانسحبت.

كيف له إلا يتجهم؟، طبيعي أن يختلف مع الحياة، بعد أن وضع كل ما يملكه في شراء معدات طبع شرائط الكاسيت، وحين أصبحت ملكه، غزا السي دي والإنترنت العالم.

انتهى عالم الكاسيت، مع أنني الآن أغوص في العتبة بحثاً عن جهاز كاسيت. حين رن الهاتف.

- الو.

-

مطلوب ان اسلم معالجة حلقة. كل يومين.
وقت ضيق، ومشاهد أخرى تتزاحم للخروج.

الحلقة السادسة

أتبع ابن الكرام،
متقولش عبد ولا سيد
فقير، وساخي الإيد
أحسن من غني وجبان.

كان يعي عامر جيدًا أن معركته مع الخرساني صعبة، كان يعرف أن جيش اليهودي أكثر عتادًا وقوة، غير أن ذلك لن يغير من الواقع شيئًا، فالمعركة قائمة بالفعل.. الخرساني وجيشه أحاطوا المدينة.

ما بقي الآن، هو المواجهة أو التسليم.

ارتدى الأمير عامر الخفاجي ملابس المحارب، ونزل من أعلى قصره، وهو ينظر لابنته الواقعة وكأنه يعيد اكتشافها من جديد، ركب فرسه، وتقدم فرسانه استعدادًا للمعركة، وقبل أن يمضي إلى ساحة القتال، استوقفه الشاعر، طالبًا أن يشاركه القتال.

- لتبحث لك عن مكان آمن، حتى لا يدوسك حصان شاردي، لا مكان في الحرب لشاعر.

- إن لم يكن الشاعر.. فارسًا، فمن يكون؟!!

- يكون أسير الهواجس والخيالات، لتأخذ لك جانبًا، حتى لا يأخذ رأسك سيف.

اتخذ الشاعر جانبًا، مشيرًا باحترام للأمير كي يمر، وهو يقول له بصوت خفيض: مشكلة الحكام، أنهم يتصورون أن في السيف كل شيء، مع أن الكلمة هي من سبقت كل شيء.

في ساحة القتال، وقف الخفاجي أمام الخرساني، خلف كل منهما جنوده، بعض من حراس المدينة قتلى، جثثهم ملقاة على السور.

- دخلت بلادي معتديًا، ارحل وكفانا شر القتال.

- (يضحك الخرساني) في القتال متعة، لا يخشاها سوى الجبناء، سلم ابنتك، والصبايا، وادفع ما فرض عليك، تنعم بالحياة.

- وفي السلام قوة، لا يعرفها سوى الشجعان، اترك بلدي، فسأدفع عنها حتى الموت، وسيخلدني قومي.

- لن يبقى أحد من قومك، حتى يخلدك، فقد حان وقت الموت.
قالها الخرساني واندفع، ليعلن عن بدء الحرب، والشاعر، في
شرفة القصر العليا بجوار جوبة يشاهدان المعركة.
تلتحم السيوف، تزوم الأحصنة، تولول جوبة إن وجدت والدها
أقرب إلى الهزيمة، تهلهل إذا اقترب سيفه من النصر.
والشاعر.. هناك، شارد في مكان آخر.

مساء الخميس 27 أكتوبر 1992.

كان من المفترض أن أكون نائمًا.

تناولت وجبة عشائي منذ ما يقرب من ساعتين، المؤذن أنهى
نداءه بالصلاة منذ فترة، الساعة نفسها تقترب من العاشرة مساءً.

لكن النسوة اللاتي اجتمعن أسفل بيتنا، بملابسهن المبهجة، وحكاياتهن
القديمة المكررة، ومجاملاتهن لبعضهن البعض، وحرص أمي على
الجلوس معهن، وهي تداري قلقها في عمل أدوار الشاي المتتالية،
كل هذا جعل مسألة النوم بالنسبة لي مستحيلة.

لم يتوقع أحد من الرجال المنتظرين في المنذرة بالخارج، ومن
النسوة الجالسات في البيت أن تتحول الملابس المبهجة إلى سوداء،

والقهقهات المنفلتة إلى نواح، بمجرد أن يصل والدي إلى ذلك الشارع الضيق الذي اتكأت على جانبه بيوت عائلتنا، والتي كان آخرها بيتنا.

قالت جدتي: "أهو جه"، وأكملت: "ده صوت عربيته".

هرولت للخارج لاستقباله، كانت لدي رغبة أن أفتحه هذه الليلة فيما قاله لنا مدرس الألعاب بالمدرسة، لقد طلب أن يشتري كل واحد منا شورت أبيض وفانلة حمراء، زي.. يميز فصلنا وهو يلعب فريق الفصل المجاور في حصة الألعاب، ولم أتمكن من أنقل طلب الأستاذ عبدالراضي إلى والدي، حتى يأخذني معه في سيارته ويشتري لي الزي المطلوب، كان والدي قد حضر متأخراً ليلة أمس، ورفضت أمي أن أقوم بإيقاظه هذا الصباح لأنه متعب، بعد أن رأت أن الموضوع نفسه يتحمل التأجيل، فالיום خميس، وغداً الجمعة إجازة وهو الأنسب لي وله في القيام بعملية الشراء.

حين أطفأت السيارة نورها العالي، ونزل منها الشيخ محمد، الذي قادها هذا اليوم في هذه الرحلة الغريبة، ووقف المتسامرون المنتظرون منذ فترة طويلة على أقدامهم لاستقبال والدي ومن معه، سادت مساحة صمت غامضة، كنت أقف أمام السيارة مباشرة، حين خرج الشيخ محمد متسمراً، وكأنه صنم لا حول له ولا قوة،

لا أحد يريد النزول من السيارة، لا والدي، ولا أولئك الذين يجلسون بجواره.

مرت نقيقتان كاملتان، الموقف كما هو، حتى خفت نور عمود الكهرباء المجاور، ضعف كعادته، وقبل أن يعود إلى حالته الصحية، كان ابن عم والدي عنتر، هو أول الخارجين من السيارة.

بدا لي عنتر كممثل سينمائي يؤدي دورًا ما، وسط جمهور صامت، حين تقدم خطوتين، وأمسك بفتحة جلبابه.. ليمزقه، وكجمل أنهكه السفر برك على الأرض فجأة، وراحت يده ترفع التراب لتضعه على رأسه في حالة تشنج هستيرية، لم يفهمها الجمهور، استقبلتها أنا بقلبه بريئة طازجة، قبل أن يصرخ في وجه الجميع، في وجهي: "ماااات".

إنها الجملة التي قلبت كل شيء.

في البداية أضافت مساحة صمت أخرى، بعدها.. بدت تتعالى أصوات الجميع، كل واحد منهم تحوّل إلى بطل آخر، كل واحد منهم بدا حافظًا لنص مليودرامي خاص به، يؤديه وحده، لا علاقة له بالنصوص الأخرى المجاورة، لا يراعي حتى وجودها بجواره.

وجدت نفسي، ليلتها.. أقف وحيدًا، تنتقل عيناى من مشهد هنا لمشهد هناك، من نص لنص، وبطل لبطل. المشاهد من كثرتها

وتنوعها أربكتني، بدت مشاعري متناقضة لا أعرف إن كانت تدفعني للبكاء؟ أم تقودني للضحك؟

في مشهد، جدي جمعة، يتحدث مع الله، كان مندمجاً جداً وهو يصرخ في السماء: "خد حد من عيالي.. بس عطا الله.. لا".

وفي مشهد آخر، وقفت الحجة - اسم واحدة من النسوة اللاتي كن في البيت - في حيرة شديدة من موقفها، تبكي، وتحت في الوقت ذاته أختها حنان على ترك المكان فوراً، لاستبدال ملابسها المبهجة، بأخرى سوداء.

جدي محمد وقع على الأرض، ممدداً قدميه، بدت تضاريس وجهه مرتبكة.. تهتز، وصدره يرتفع ويهبط، وصوته يعلو ويخفض، جلبابه لم يكن معدولاً، كشف عن نصف ساقيه، وهو يردد في ألم عميق: "يا بووي يا ولدي.. يا بووي يا ولدي".

لم يحاول أحد من الأبطال، أن يتدخل في عمل الآخر، استمر الوضع لما يقرب من ساعة هكذا، حتى وحد الشيخ محمد النص، مثل مخرج بارع، راح يحث الجميع على نقل الجثة إلى داخل البيت، وجلب المغسل، والكفن.

كان يوماً غريباً في كل الأحوال، سماؤه كانت ملبدة بالغيوم، مع أن الشتاء لم يدخل بعد، ولم يعتد أن يرسل غيومه في هذا التوقيت من السنة في سماء أبودياب.

لم يتجاوز هو الـ 31 عامًا من عمره، ولم أتجاوز الـ 11 عامًا.

كل ما قاله، صباح هذا اليوم، أنه يشعر بصداع صعب، صداع يداهمه من ليلتين، أشد عليه للدرجة التي جعلت عينيه "مزغلة"، وكل ما حدث أن أقرانه وأبناء عمومته أصروا على اصطحابه إلى طبيب، نده عليّ لأذهب معه، وبعد أن ارتديت جلبابي النظيف، أعادني جدي: عاود يا واد، مفيش عيال صغيرة تروح.

كانت المسألة.. أقرب لرحلة ترفيهية، منها لرحلة يُحيطها ثمة خطر، حتى اللاني حضرن لمنزلنا جنن في الأساس للتفريج عن أنفسهن، النساء عندنا تتلمس أقل الأحداث للخروج، في مجتمع بخيلة الأحداث فيه، مجتمع يرفض خروجهن من بيوتهن إلا في حالات تُعد على أصابع اليد الواحدة، منها زيارة المريض، من شاع عنه الذهاب إلى طبيب.

في اليوم التالي، ضبطت نفسي مسكوناً بتلك الفكرة، وقفت أمام السيارة، أفكر في أنها الآن أصبحت من حقي، لي كامل الحرية في قيادتها، في الذهاب بها إلى أي مكان يحلو لي.

لم تنزل من عيني قطرة دمع واحدة لفترة طويلة، رغم أن البكاء في بيتنا لم يتوقف يوماً واحداً لمدة عام، مراسم أخذ العزاء استمرت 15 يوماً متتالية، من التاسعة صباحاً، إلى الثانية عشرة صباح اليوم التالي، الأربعاء والحوالي، الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة، التي يكون للميت نصيب فيها. إننا مجتمع يعشق الحزن، يحبه، وينفئن في الاحتفاء به.

حاولت أن أبكي، مجاملة لمن يواسيني، ولم أجد في عيوني دمعا، حاولت أن أمثل ذلك.. ولم أعرف، جلست مع نساء البيت.. بجوار المعدة، قبل أن يجبرها عمي على التوقف بدعوى أن ما تفعله حرام، كانت تنوح: "يا قبر جايك جدع زين/ خايل في لف العمامة/ وحياة نبينا.. نبي زين/ ما تحاسبه يوم القيامة"، وتنوح: "غَرْب يا غفير.. هاته"، ولم يحدث شيء.

في الحقيقة.. لم أكن أصدق.

- انتظر يا بني، أنا والدك.

ماذا؟

- نعم هو والدك.

صرخت، في الوقت نفسه، الخضراء وكأنها جاءت خصيصًا لتشارك في صنع مشهد مفصلي، في صراعٍ درامي طويل وقديم، جاءت تنقذ أبًا من ابنه وابنًا من أبيه.

اعتراف تأخر عشرين عامًا، وحين جاء.. جاء تحت تهديد السلاح، جاء ضمن آخر معركة مع بني هلال.

كان بإمكانني قتل فرسان بني هلال جميعًا، بعد أن أغاروا علي بني الزحلان بحثًا عن غنائم، أنا من اخترت الطريق الآخر لاقتناص النصر، لم أكن في حاجة للدماء، كانت المسألة سهلة، وضعت سيفي على رقبة الأمير سرحان، ووضعت على رقبة القاضي بدير، وعفوت عنهما، ولم يبق سوى فارس واحد، لأواجهه، فارس إذا انهزم.. انسحبت بني هلال، ودفعت مقابلًا للإغارة، لم يبق سوى الأمير رزق.

تحت السيف، تحت هيبتته، وخوفًا من الموت ورغبة في النجاة، الأمير رزق يعترف.

يا ليت له لم يعترف.



كنت جالسًا على حجرها، أشارت لي بحسرة، وهي تقول لإحدى النسوة: وأهو ده كويني كوي، هارينى طول الليل بكايه.

يومًا ما، أمام مدخل البيت، أمام جدتي التي كوى قلبها الحزن، وأنا أغسل وجهي في الحنفية التي تقع في المدخل، ظلت أمي تنتظرني بصبر لأنهي العبث الذي أقوم به، حتى تملأ سطلها، لتتوضأ وتصلي المغرب، يومها صرخت في وجهها: لو عاوزة تتجوزي، اتجوزي ما تستنيش حد.

بكيك على صوت جدتي: يا ولدي ليه الحديث ده؟

أما هي فلم تنطق!

ضاقت عيناها، كانت خجولة وبرينة وحزينة في وقت واحد، ثم نظرت لي نظرة شفقة، ليبتها ردت، ليبتها لطمنتني على وجهي.

خرجت مسرعًا، تطاردني نظرتها حتى الآن.

قدما هجين، تدوس على حرير، خضراء الشريفة تعلوها، على هودج أخضر، شامخة، ينحني لها الناس محبة واحترامًا، في يوم ما، لم يكمل فيه أبوزيد العشرين من عمره، كان بجوارها على فرسه الكحيل، بملابس الفارس، وشاشه الأبيض.

دخلت الخضراء بني هلال، منتصرة لابنها، منتصرة لها، بعد أن استجاب الهالليون، لشرط الفارس، أن تعود الشريفة على سجادة من حرير.

عمت الفرحة، ولم يكن هناك أسعد من شичاء، وهي التي كبرت وتربت وتزوجت وأنجبت، دون أمها وأخيها، لذلك حين وصلا، واحتضنتهما بالدموع، أمسكتهما بيديها، الخضراء في اليمين، وأبوزيد في الشمال، لتريهما آخر أبنائها، يونس، كان رضيعًا، تغطيه بشاش أبيض حتى لا تفتن به الأمهات.

حين كشفت عنه، ابتسم يونس، استقبل خاله بابتسامة طويلة، لا تزال باقية بداخله حتى الآن، تطارد عقله، كلما رآه، حتى بعد أن كبر، وأصبح فارسًا، يشهد له الناس بفنون الحرب والقتال.

أفاق أبوزيد من هلاوس الماضي، على هلاوس الحاضر، على صوت طبول الانفصال، وابتسامة يونس الذي وقف جواره بالشرفة، غابت الشمس ولم تحسم معركة الخفاجي مع الخرساني، لم يظهر لها غالب من مغلوب.

تسعة أيام، تدق الطبول مع بداية النهار فيشتبك الجيشان، ثم تدق

ليلاً فيفترقان دون فوز أحد، ليلم كل منهما قتلاه وجرحاه، الخرساني يريد أن يؤدب عامر على رفضه دفع الجزية وتسليم جوابة، عامر يدافع بكل ما أوتي من قوة للحفاظ على شرفه.

في اليوم العاشر، بدا الوهن يظهر على ما تبقى من الجنود.. أصابهم الإنهاك، أصاب الأمير عامر الخفاجي أيضاً، فضعت ضرباته، وضلت حرابه طريقها، وحين لاحظ ذلك الخرساني، قال له وهو يلقي حربته: "خذ هذه يا عامر، حتى لا يقال إنني أخذتك على خيانة"، وقبل أن تصيبه حربة الخرساني، ابتعد عامر، فر هارباً من ساحة المعركة.

فرار الأمير إن طال ووصل الغروب، يعني الهزيمة.

نزلت جوابة تهول، لتلحق والدها قبل أن يدخل القصر، تحته على الاستمرار، هزيمته لا تعني فقط تسليم المدينة بأكملها، بل تعني أيضاً أنها ستكون في أحضان اليهودي عنوة، سيتحول الرجال إلى عبيد، والنساء الأحرار إلى جوارى، والأطفال الصغار إلى خدم.

كانت عينا جوابة أثقل من حراب اليهودي وسيوفه.

اقتрحت عليه أن يأخذ معه الشاعر ليحارب، لكن الشاعر الذي وقف بجوارها أثناء الحوار، قال وهو ينظر لعامر: أنا شاعر مذاح، والحروب تحتاج لفرسان لا شعراء، لسيوف لا لرباب.

أغضب الرد عامر، لم يعلق، ولم يجد أمامه بديلاً سوى العودة مرة أخرى لميدان المعركة، خسر عشرة فرسان أثناء فراره، وخسر مثلهم أثناء عودته، حتى وصل إلى الخرساني.

- كنت أظن أن الأمراء لا يهربون من المواجهة، عموماً..
لتحمد الرب على سلامتك، حتى يكون لك شرف الموت بسيفي.

بدا عامر واهناً وهو يتلقى ضربات الخرساني، حتى نالت منه حربه، سكنت فخذة وشلت حركته وأوقعته على الأرض.

أحاط الأمير عامر فرسانه لحمايته من موت قريب، نزعوا منه الحربة، حاولوا أن يمنعوا نزيف الدم بالشاش، وحملوه إلى قصره، واستمات الباقي منهم في الدفاع عن مدينتهم ونسائهم وأطفالهم.. حتى غربت الشمس ودقت طبول الإنفصال.

في غرفته الخاصة، يهرول الأطباء لمداواة الأمير الجريح ووقف نزيف الدم الذي لا يزال ينسال.

ثلاثة أيام، جوابه تبكي، والخفاجي طريح الفراش، والمعركة مشتدة، انتقلت من ساحة الحرب إلى أسوار القصر، والحراس يدافعون باستماتة، والأطباء يحاولون إيجاد الدواء، والأمير من سيئ إلى أسوأ.

طلب الشاعر مسعود من جوابة أن يصعد إليه، أن تمنحه الفرصة ليحرب مع الأمير طبه، ودواءه.

طلب الشاعر خروج الأطباء من حجرة الأمير، وذهب من تبقى من الحراس إلى أرض المعركة ليقفوا كتفاً بكتف بجوار زملائهم، وطلب من جوابة أن تأتي له بلبن إبل وعود بخور.

أشعل الشاعر عود الدخان، والأمير الجريح يسأله: أهذا دواك؟
لم يرد الشاعر الطبيب، فقط جلس يعزف على ربابه.

آه يا ليل

طويل يا ليل ع الغلبان

ينام الليل أبو قلب خالي

عوال الهموم، ما ينام

والأمير يتململ يمينا ويسارا على فراشه، لم يعد قادرا على كبت دموعه، انسالت وانسالت حتى فقد وعيه.

تمتم الشاعر على كوب اللبن، ثم سقاه للأمير، وعاد لجوابة الواقعة على باب الحجرة، يطلب منها أن تجهز له ماء ساخنا وليفة وصابونة.

- ماذا.. أمات أبي؟ والشاعر لا يجيب.

والمعركة، معركة الشرف، في نزعها الأخير، محتدمة على
الأسوار.

الحلقة السابعة

غسله يا مُضِل،
أدي لِبِفْتِه وأدي الصابونة.

كانت النار مشتعلة في وعاء فخاري، وعلينا نصل حديدي، يقبله الشاعر على النار حين أحضرت جوابة الماء الساخن، والصابون والليفة، وخرجت بناءً على رغبته لتتركه وحده مع والدها.

غسل الشاعر جرح الأمير عامر، فاقد الوعي، كواه بالنصل الملتهب بعد أن نظفه من الصديد، وبدأ يرقيه بآيات قرآنية، وهو يدهن الجرح.

وفي الخارج، الخدم يتهامسون بموت الأمير، مشيعين أن الشاعر يقوم بغسله وتكفينه، وروح الهزيمة تنتشر.

في النصف الثاني من الليل، وقبل طلوع الفجر، فاق الأمير من غيبوبته، عاد للحياة، بدا وجهه أفضل، يتطلع حوله، يتأمل حجرته، كغريب، قبل أن تمر بعقله مشاهد من كل ما حدث، حتى وقع نظره على الشاعر.

- أنت من طبيبتني؟!!

والشاعر يلملم أدواته في متاعه، مبتسماً.

- أنا شاعر مذاح، لا علاقة لي بالطب، مثلما لا علاقة لي بالحرب.

دقق الخفاجي النظر فيه وكأنه يعيد اكتشافه.

- ماذا عن الحرب؟ ماذا عن جوابة؟

تساءل، وهو يحاول القيام من فراشه، فهدأ من روعه الشاعر: الشمس لم تُشرق بعد، الجيشان في حالة انفصال، الجرح لم يلتئم، لكننا نحمد الله على سلامة الأمير.

اعتدل الأمير في فراشه.

- أشكرك يا رجل، أشكرك جداً، أنا مدين لك بإنقاذ حياتي، أقول لك، تمنى.. فما تتمناه سأحققه لك من فضل الكريم.

- أمتأكد سيدي من العرض؟

- أو لديك شك؟

- ليس شكاً، فكرم الأمير الخفاجي، يعرفه كل العرب، غير أن ما أريده، ربما يتخطى الكرم.

- أيًا ما كان طلبك، سأحققه لك.

- أريد الأمر والطاعة، وقيادة الجيش، وما بقي من الفرسان وجوابة، وتسعين صبية، وحصانك.

- أئمن الدواء الحكم؟!!

- ليوم واحد، يوم واحد فقط.. غدا.

ينزعج الأمير من الفكرة وقد فهم مُراد الشاعر.

- ربما تكون شاعراً فصيحاً.. موهوباً، ربما تكون طبيباً ماهراً، لكن الحرب، وقد قلتها أنت، تحتاج إلى فرسان لا لشعراء، أخاف على جوبة أن يأخذها منك اليهودي.

قبل أن تخرج الشمس من بيتها بقليل، يكثر البخار الصاعد من عربات الأكل المنتشرة في الموقف القديم ويهل عمال المعمار من كل فج، يتناوبون الوقوف عليها، لملئ البطون، قبل الذهاب للرزق أو انتظاره.

غيرت طبق الفول بطبق عدس، في البداية مغص، لم يفلح برشام الصيدلية في علاجه، لأعد للبيت، من المؤكد سأهدأ، غير أن الألم ازداد، مناع أب ضوي يؤكد أنني سأتحسن، فقد مر بنفس الألم من قبل، جمال أب خليفة يذهب لدكان البقالة الخارجي، ويطلب الإسعاف!

قضيت أسبوعاً كاملاً في حوش آب كرشان، لا أخرج، يساعطني عم جمال، في الأيام التي لا يعمل فيها، في تجهيز أكل يصلح، فعل ذلك أيضاً مناع، قبل أن يمسك بنغمة جديدة:

- رُوح يا ولدي، أدبلك أنا مواصلاتك، اليوم هنا بيتعد بفلوس عليك، وأنت مش قادر تشتغل، رُوح تلاقبك فوجه حلوة في بيتكم.

حين وجد أن الحديث معي لن يؤتي بنتيجة، حك رأسه في الصباح، وكان قد خرج الناس لأعمالهم:

- يمكن واحدة تاجي تنصلي المطرح شوية كده.

لم أرد عليه، سكت قليلاً، ثم قال:

- مش أما كلمك، ما ترد علينا ياخي.

- هات يا مناع اللي تجيبه، ماليش صالح بيك.

وفي منتصف النهار، جاءت.

كانت تتبع عم جمال في البداية، وبعد أن حمام حولها مناع، تركها له، قال لي ذلك ليلاً وهو مسطول من البانجو: المرة اللي تخلي رجلين يلمسوها ماتنفعش، وكمان صدرها صغير أما تحشيه قطن.

نزل عمي محمود من الجبل، واصطحبني إلى آخر بيوت الصفا،
عكس اتجاه البحر.

بيت سلامة أب أحمد.

الشاعر في ملابس الأمير، معتليًا حصانه، ممسكًا بدرعه وسيفه،
معلقًا حرا به، وبجواره أصدقائه الثلاثة، في ملابس المقاتلين، وخلفهم
ما بقي من فرسان عامر.

في المنتصف جوابة، على محمل جملها، شعرها وراء ظهرها
منساب انسياب النهر، ملابسها زاهية، عيناها مكحلتان، كما طلب
منها الشاعر بالضبط، تلاحق يونس ويونس يلاحق عينيها، وتمستعين
من الصبايا حولها.

قبل الوصول إلى اليهودي، طلب الشاعر من جوابة أن تكشف عن
وجهها، أن تخلع البرقع الذي ترتديه، سيساعده ذلك في قتال الخرساني،
وبعد تردد.. وتشجيع، فعلت، لتبدو أكثر سحرًا وجمالاً.

علق يونس مازحًا:

- اعتقد يا خال أن الموت من أجل جوابة.. حلال.

فيرد أبو زيد، وهو يشير إلى الخرساني الذي وقف بعيدًا متقدمًا جيشه: حلال يا بُني.. حلال!

بدا اليهودي سعيدًا، فالمشهد الذي أمامه يؤكد أن الخفاجي قرر تسليم المدينة ودفع الجزية وجوابة والصبايا، وكلما اقتربت جوابة كان يغرق أكثر في وجهها، ندرة بشرتها، جماح عينيها، وعزوبة ملامحها، حتى أفاق فجأة على وجه الأسود الكالغ.

- أنت على باطل.. خذ رجالك وارجل.

- ماذا؟ أنت العبد الذي أرسله عامر بالجزية وجوابة، لتسلمهم وتعود من حيث أتيت؟

- لا، أنا من أتيت لأقتلك!

ضحك، ثم علا ضحكه.

- اترك سيدتك أيها الأسود، أنا لا أقتل عبيدًا!

وسحب الأسود سيفه، بهدوء، إشارة إلى بدء القتال، لم يجد الخرساني أمامه، سوى أن يسحب سيفه هو الآخر، فقرعت طبول الحرب.

تحوم الخيول، الأرض تهتز من تحتها.

الخرساني يلقي حربة على الشاعر.. فيميل قليلاً لتمر بجواره،
يكرر الخرساني ضربته.. ويميل الشاعر، فتهدف كمن سبقتها،
يغضب الخرساني، يقاتل بضراوة، يلقي بحرته الثالثة، فيتلفها
الأسود وهي طائرة، يكشر عن وجهه، ويعيدها إلى اليهودي.

- إن هافت مني، فلن أركب فرساً للحرب طوال عمري.

غرزت في عنق الخرساني، فاصلة رأسه عن جسده.

كانت المعركة على وشك الانتهاء. غير ما أن هناك ما جد فأعاد
شراستها، تضاعف فجأة جيش العجم، ظهرت السنيورة.

كان قد وصل خبر مقتل الخرساني إلى أخته، كانت في خيمتها
المصاحبة للجيش، السنيورة، على رأسها طاقة، تقضي يومها وهي
تحدث الجان.

وها هي في الميدان، بجنود وهميين، تقلب موازين المعركة.
حين رآها الفارس الأسود، خاطب يونس: اذهب إليها، ونل
منها.

وماذا يفعل معها يونس، يشرع سيفه ليضرب عنقها، فتطير،

يرسل حربته، فيجدها ممسكة برجل حصان، إنه يحارب خيالات
أنهكته وأرهقته، مما دفعه لأن يستعين بخاله، خاطبه من بعيد:
يا خال صعبة أخت الخرساني، لتضع حلاً لها.

استعان الخال بخاله، الخضر قطب الرجال، جاء، خطف طاقة
السنيرة من فوق رأسها، وأتاح الفرصة أمام سيف يونس، ليقطفه،
فضاع سحرها وضاع معها فرسان الجن.
وانتهت المعركة.

تابع عامر الخفاجي، مشهد النصر، من شرفة القصر، رأى
جوابة عائدة على حملها، خلفها تغنى الصبايا.

- إياك أن تتركنا يا شاعر، ابق معنا أنت وأصحابك، اسكن
مدينتنا، ستجدون المكانة والراحة.

ينظر الشاعر إلي جوابة.

- ومن أجل المكانة، لا الراحة، لا بد أن نمضي يا ابنتي،
امامنا رحلة طويلة، ربما نمر عليكم يوماً ما، فمن يدري ما تخبئه
الأقدار؟!!

- والله لو ماكنش البيت بيتي، كنت سيبتهولك ومشيت.

لا أتذكر تفاصيل المشهد بالكامل، غير أنني لا أنسى وجه سلامة
أب أحمد، وهو يكسر الراديو قطعة قطعة، ثم جلوسه على قدميه،
مشمراً ساعديه، ينفخ، كان غاضباً جداً.

ربما كنت اضع الراديو على أذني فقال شيئاً ولم أسمعه، أو
سمعته ولم أجه.

لم تمر ساعتان، حين عاد بواحد جديد.

لا يستطيع سلامة أب أحمد، أن يعيش دون راديو، دائماً هناك
حجران خرطوش، جاهزان في حالة عدم استجابة القديمة للعضضة،
هنا الراديو يفعل كل شيء، يغني ويمثل ويرقص، ويضحك ويقرا
النشرة ويحلل، وفي الليل، حين ننام، يرتل علينا القرآن.

الخريطة البرامجية لإذاعات الشرق الأوسط والبرنامج العام
والبرنامج الثقافي وإذاعة الأغاني، حاضرة في عقل سلامة، منظمة،
تحدث نفسها باستمرار.

كل حوار خضناه في السياسة والثقافة والأغاني، كان ينتهي في
كل مرة عندي، معلوماته تجعلني أتوقف، لا امتلك رداً، مع أنه لا
يقرا ولا يكتب.. ولا يريد العودة إلى أبو دياب.

بنى سلامة أب أحمد بيته بيده، بنى حجرة واحدة، صنع فيها سريره الخشبي، وعمل فيها أرفف قليلة، واحد منها كان للمبة الفتيل.. تتراقص النار داخل الزجاج، حين تغني الإذاعة.

كان بيتاً رومانسياً.. من حجرته الوحيدة، تستطيع تأمل شجيرات الصغيرة والقليلة المقابلة، شجرة الجوافة وشجر الزيتون، جرب سلامة أب أحمد البطيخ والطماطم، وأكلنا منه باننجان.

يعيش البيت على أضواء العامود الخارجي، التي تدخله ليلاً ناعمة دون إزعاج. يعيش على الخيال وضوء القمر، دون كهرباء.

الحلقة الثامنة

محاسن الوجه، تغيرت
والبها واللون
ولا تفرحوش يا عوازل
دا كل واحد، لازم..
ياخذ له يوم
وبكرة بيجي اليوم
وترجع للأصيل عوافيه.

- مالنا ومال الناس يا خال؟ الأقربون أولى بالمعروف.

- أتريدني أنقض عهدًا، قطعتة على نفسي.

- أتظن أنه بتضحياتك هذه قادر على تحقيق العدل على الأرض،
أتظن أن وقوفك بجانب الضعفاء والمهزومين، كافٍ لأن يخلق
للعالم حياة أفضل، إنهم حطب الكون يا خال، أينما وليت وجهك،
وجدتهم، إنهم أكثر مما تستطيع أن تغيّره، أو يغيّره فرد واحد.

- لا يا ولدي، يستطيع الفرد أن يغير العالم كله، خالنا المصطفى محمد، صلي الله عليه وسلم، كان فردًا وغيّر العالم.

- كان نبيًا وليس فردًا، كان يحمل رسالة الله، وكان الله معه.

- نعم نبي، لكنه بدأ فردًا وحيدًا في صحراء ملاءها الظلم، ولأن رسالته حق، كان الله معه، الله دائمًا مع الحق يا ولدي، والحق قوي.. يعرف قوته كل من آمن به.

- أنت لست نبيًا يا خال.

- أعرف أن في من خصال الشياطين كثيرًا، لكنني أكره قهر الضعفاء

- أظن أنك تضيع كثيرًا من وقتك، وتورط نفسك في كثير من المشاكل من أجل الناس، نحن الآن في غربة، بنو هلال أولى.

- أحمد الله يا ولدي الذي أعطاني الوقت لأعطيه للضعفاء من الناس، الضعفاء يا يونس، هم الشجر الطيب في الأرض، في كل الأرض، ربما لا يقدرّون على تغيير أوضاعهم وتبديل أحوالهم، غير أنهم قادرون على الحلم، والحلم.. يسبق الحقيقة ويصنعها، هم يصبرون وفاءً لأحلامهم، والوفاء للحلم والصبر عليه.. وفاء للحياة، والحمد لله الذي اختارني لأكون مشاركًا في تحقيق أحلام بعض الناس، وكل الناس أولى، بنو هلال، وغيرهم من الحالمين

في أي مكان، كلنا على مركب واحد.

- أنت تجعل نفسك دائمًا في دوائر الخطر، وتدخلنا معك، معتمدًا على قوتك، وأنت تعرف أن القوة وحدها لا تكفي.

- القوة.. يعرفها الناس، لقد اختلفوا على كل شيء، لكنهم اتفقوا على خوفهم من الموت، أحب سيفي، نعم أحبه، وهو جزء مني، مثل يدي وقدمي.. ويدي وقدمي يحركهما ضميري، حلماً بالعدل، لا شهوة في قتل، ولا رغبة في انتصارات زائفة، ولو كانت المسألة سيفاً ورمحاً وعضلات، لحكم الفيل العالم.

- العدل.. العدل.. العدل، إنك تبحث عن ضالة لا يعرفها العالم يا خال، العدل غاية مفقودة على هذه الأرض، يتعطش له الناس دائمًا، تضيع أعمارهم بحثًا عنه، وإذا طرق بابهم رحل سريعًا.

- يا أولاد شيوخ، يا أولاد أختي، الإيمان بالعدل، هو إيمان بالله، وأنا مؤمن بالله، وقد أراني في لوني الحكمة، وفي حياتي.. العظة، ذقت الظلم، فكرهته، وأنار لي العدل نفسي، فأردت أن يراه الناس كما رأيته.



كان الفرسان الأربعة يتخطون النهر الفاصل بين المشرق والمغرب، وهم يتحدثون عن الله والحياة والعدل، وصلوا جسر خشبي، وحين صعدوا على ظهره، بدا من بعيد.. فارس يمتطي جوادًا، واقفاً على تبة عالية، يشاهدهم، ويترقب خطوات قعدانهم.

حين وصلوا نهاية الجسر، انتبهوا لوجوده، فاقترب منهم، يسأل كبيرهم، بعد أن ألقى عليهم السلام: من أين أخ العرب؟

يتوقف الهلالي عند السؤال، يدقق نظره في عيني السائل، وهو يجيب: أنا عبد عجمي، إذا أردت أن تعرف أكثر يمكنك أن تسأل أسيادي، وأشار إلى يحيى ومرعي ويونس، فيقترب الفارس من مرعي، يسأله: رانع عبدكم العجمي هذا، بكم اشتريتموه؟

ينظر مرعي إلى خاله، ثم تعود عيناه إلى السائل، ليجيبه: لم نأخذه بمال، جاد علينا به رب الخليقة.

يضحك السائل: أبو زيد شاعرًا وعبداً.

يتبادلون الفرسان نظرات الدهشة، وأبوزيد ينظر في عيني الفارس، الذي يعرفه، ليحاول أن يعرفه.

يطوف بحصانه قليلاً، قبل أن يتوقف مباشرة أمام أبي زيد، ليعلن.

- أنا العلام.

هيمن القلق على وجوه فرسان بني هلال، هل عرف العلام سبب مجيئهم، فجاء يمنعهم؟ هل فضحهم ودعه؟.. تدخل أبو زيد.

- أهلاً بأمير تونس، الذي يأتي اسمه معها حين تُذكر، وكثيراً ما تذكر في الشرق أو الغرب، أهلاً بالأمير العلام.. الفارس الذي يجيد القتال، كما يجيد سؤال الودع.

- معي خبركم، منذ أن تركتم بني هلال.

صمت.

- عرفت ما فعلتموه مع الأمير الخفاجي، شيء يستحق الإعجاب.

- اسمع يا بطل علام، إن كان رملك خبرك علينا.....

يقاطعه الأمير العلام:

- أنا أعرف كل شيء يا أبا زيد، أعرف مقصدكم جيداً، وها هو،

على بعد ثلاثة أيام، اذهبوا، ستكون معكم الفرصة الكاملة لتجربوا

ما تفكرون فيه، وسأعتبر أنني لم أركم ولم أعرف عنكم شيئاً، وإن

احتجتموني، بيتي معروف، على أن تعلموا أن الزناتي خليفة إن

مال على جبل هده.

ذهبنا إلى الجبل.

استيقظت من النوم بغته، نزعت البطانية مرة واحدة، وخرجت من الحجرة، كاني آلة، أغترف الماء بالكوز الكبير، أتركه ينساب ببطء على رأسي، باردًا، ليتحول الأمر من رعدة إلى انتعاش.

كل الصباحات منعشة، ما عدا ذلك الصباح الذي يأتي بعد تغير مكان الشغل، فأحمل فيه شيكارة العدة، من الصفا إلى الموقف، 2 كيلو، ما بين صعوبة صعود، وسهولة نزول.

عمي محمود يحرص على أن تكون عدته مكتملة، أفرغها من الشيكارة، لأراجعها قطعة قطعة: المسطرين، المحارة، البروة، الطواليش، الشاكوش، الأجنة، ميزان الخيط، ميزان الميه، سكينه النضافة، المنقرة، التخشينة، الطوق، الأسفنجة.

أحمل الشيكارة على كتفي، وأمشي خلف المعلم محمود، في العهود السابقة، تطرفت العلاقة بين المعلم والعجان، لأن يغسل العجان ملابس المعلم، تأكيدًا لفضله.

غير أن المعلم محمود يحمل الكُريك والمهزة، يمشي في المقدمة، دون أن ينظر خلفه، حتى يعطيني الحرية الكاملة لأن أدخن.



كانت السيارة نصف النقل تنتظرنا في الموقف، على ظهرها عدة الخشب.

راجع "المعلمين" المون، علب الفول، والعدس، أجولة العيش والبصل، كرتونة زيت، جوال باننجان، وثلاثة براميل مياه للشرب.

بعد ثلاث ساعات في الصحراء، تركتنا السيارة قبل جبل المغارة بـ 5 كيلو، ولن تعود إلا بعد أسبوع.

أدخلنا مون الأكل والشرب والعدة، جلسنا نستريح، وجلس محمود يوزع علب السجانر، كل واحد له 7 علب، حصيلة أسبوعه، ولم يكن لي نصيب في القسمة.

من اليوم الأول، بدأ يضيق الناس من طلبي للسجانر، علا صوت أحدهم قليلاً لكي يُسمع عمي محمود، أنهيت الحديث بسلام. شعرت بضيق، وقررت ألا أكرر الطلب.

ظل الدخان يشغلني، افتقاده جعلني متوترًا، أنظر إلى أنصاف السجانر الملقاة على الرمال، بحثًا عن أطولها، لأشعلها، حتى التقفت علبة فارغة مكرمشة قليلاً، حين فتحتها، وجدت فيها سيجارتين.

عمي محمود ظل يترك سيجارتين في كل علبة، يرميها، بعد أن يكرمشها بطريقة لا تؤذي ما فيها، لأدخن.



حين نكون معًا ويشتد العمل ويصل للمرحلة التي لا يطيق الواحد فيها نفسه، كان كل شيء تجاهي يدور على وجهه، يغضب ويسخر، يستعجل، كل شيء تقوله ملامحه.

في أحد أيام الشغل والجبل، كنت أرفع القصة الممتلئة بالطرطشة، كانت ثقيلة، ترحلقت قبل أن أعطيها له، فنزل ما بها ودخل عنق التي شيرت، وانسال الأسمنت على صدري وبطني.

تمكنت من القصة مرة أخرى لأرفعها، مد يده المعلم محمود وهو واقف على السقالة، ليزيحها كاملة عليّ:
- كملها.

قال لي بطاطا أب زرزور وقتها: اغطس في برميل الميه،
الأسمنت هياكل جسمك.
- لا.

مسحت على عيني لأرى، واکملت عملي، كمن لم يحدث له شيء.

اشترى لي كاميرا فوتوغرافية، واشترى لها فيلمًا، بعد أن عدنا من الجبل، ظللت يوم الجمعة كله أصوره وسلامة أبو أحمد، حتى انتهى الفيلم، ونحن نضحك.

في اليوم الثاني، أخرجت الفيلم من بطن الكاميرا، أمسكت بطرف السالب لأسحبه قليلًا، أبحث عن الخطوط التي تفصل اللقطة عن الأخرى، فلم أجدها، سحبت أكثر من نصف الفيلم وأنا سارح، حتى دخل محمود، وبدا عليه الإنزعاج.

- بتعمل إيه؟

- كنت عايز أشوف بداية الصور.

- الفيلم كده اتحرق.

بعد يومين، قرب العشاء، دخل البيت وفي يده ظرف، قاطبًا شفتيه، تشقق منتصف جبينه: شوف الصور بتاعتك.

لم ينج إلا قليل، كنا مشوهين في غالبية الصور، في معظمها..
نغوص في ظلام أسود.

قال لي في نفس مساء الصور السوداء: البرميل طفح.
- اي برميل.

- البرميل اللي بنصرف فيه حاجتنا.

- طب هنعمل ايه؟

- هنعمل ايه يعني؟، هنفضيه أنا وأنت.

قضيت ليلة سينة وأنا أتخيل الأمر، كدت أتقيا أكثر من مرة،
أخاف أن يزعل سلامة إن رفضت مشاركته، في النهاية، لي في
هذه الحاجات الكثير.

في الصباح.

استخدم سلامة "سيخ حديد"، علقه في يد الغطاء، ليكشف عن
البرميل المدفون في الرمل، عدت للخلف كمن سيقفز عليه شبح،
كانت مياهه سمراء، كريهة.

في النهاية فعلناها، نزحنا الخراء، ولم يفقد بيت سلامة أب أحمد
رومانسيته.

الحلقة التاسعة

والولد المليح،
ياخذه له من كل دار صاحب
صاحب ولد عال
في القفا، يرد غيبة صاحب
أما الردي.. شين
لو شافك في الغرق، ينحاش.

في الطريق حكى أبو زيد لأولاد أخته، قصة تونس:

قبل أن يدخلها المسلمون، كان يحكمها ملك يهودي، له ابنة
وحيدة اسمها المارية، فسموها على اسمها، تونس المارية.

وفي سنة 27 من الهجرة، أمر الخليفة عثمان بن عفان، الصحابي
عبدالله بن أبي السرح مواصلة فتح بلاد إفريقية، فخرج على رأس
جيش كبير، دخولا من طرابلس الغرب، سميت الحملة بغزوة "العبادلة
السبعة"، كان قادتها السبعة يحملون اسم عبدالله.

وفتحت تونس، وقتل ملكها اليهودي، وبنوا على حدود المدينة

قصرًا لابنته المارية، وتأسست القيروان، المدينة العربية الإسلامية الأولى بإفريقية، وبنى فيها القائد عقبة بن نافع جامع القيروان الكبير، وبدأت الهجرات العربية إليها، جاءت القبائل من شبه الجزيرة وافدة، لتشارك البربر والفينيقيين، الحياة، وأصبح العرب المسلمون، هم أصحاب السلطة.

وبعد أن نشط الدعاة الإسماعيليون في العراق وشبه الجزيرة، دعوا الناس إلى القتال باسم الإمام المهدي المنتظر، وقد تنبأوا بظهوره في القريب العاجل، مما دفع العباسيين لملاحقتهم وطردهم من المشرق العربي، فذهبوا إلى مصر وتونس، ونشروا مذهبهم، وأعلنوا تبعيتهم للدولة الفاطمية.

قالت جدتي: "قبل العملية يبجي بربعمية حول".

لم يكن اسمها أبو دياب، كان يسكنها أهل حجازة، وكانت تسمى الحجازية.

أما هواره أولاد يحيى فكانوا يسكنون بلبيس الشرقية، ومع حروب المماليك، ومع نظرتهم الخاصة للمرأة، وخوفًا من الاختلاط، رحلوا مع أبناء عمومة لهم من بلبيس إلى سوهاج.

وفي دار السلام عاشوا سنوات طويلة، في بلد كانت تُسمى قديماً "شو".

وليلة ما، كان يتزوج فيها سبعة عرسان، هبت رياح فتنة عالية، فأشعلت النار والحرب، وقتل أولاد يحيى واحداً من العرسان السبعة.

كل قبائل المنطقة، قامت عليهم، قاوموا، وحين عرفوا أن هناك مخططاً لاقتحام بيوتهم، قرروا الرحيل: عند العار.. نموتوا.

ارتحلوا من "شو" بسوهاج، لـ "هو" بنجع حمادي، وهم ينشدون طوال الطريق: "جيتونا ما جيناكم، وعاديتونا ما عديناكم، وحاربتونا ما حاربناكم، فبذلنا شو بهو".

لم يبقوا كثيراً في "هو"، ظلوا يبحثون عن وطن.

كانت أعدادهم قليلة، حين استمروا في الرحيل، على أطراف القرى، إذا ضايفتهم قرية.. قبلوا دعوتها، أكلوا وشربوا وأكملوا طريقهم، وإن لم تضايفهم.. بقوا.

ظلوا ضيوفاً يتنقلون من قرية إلى أخرى، حتى نزلوا على أطراف الحجازية.

لم يضايفهم أحد، اعتبروا أنفسهم أصحاب مكان.

عبدالرسول الشرايبي، زعيم الرحيل، أعلن الاستقرار على أطراف الحجازية، ثم عاد إلى "هو" بنجع حمادي، ليأتي بأبناء عمه الشواف وحمادي وأبو دياب، لتزداد العزوة، والقوة.

استقروا بين نراعي الجبل، حتى حادثة العبد شليطة.

قال زيد:

لم تنس المارية قط - حتى بعد أن تقدم بها العمر، وأصبحت عجوزاً شمطاء - ما فعله المسلمون بوالدها، وما جار بها من الزمن، فاشترت عبداً من الحبشة، وأهدته جاريتها الجميلة ياسمين ليضاجعها، حتى حملت منه.

ذهبت الجارية ياسمين للشريف علي، الحاكم العادل.

- يا جلالة الملك العادل، جنت لك في شكوى.

- وما شكواك؟

- رجل أخذني عنوة، وضاجعني عن غير رضا، وأراد أن يقتلني لولا هروبي منه، وكنت قد نويت ألا أشتكى، لولا ما نالني من حمل.

- ولماذا نوبتِ ألا تشكّي.. مع أن من فعل ذلك بامرأة ضعيفة يستحق الموت؟

- لأن المشكو منه عربي!

- لا فرق بين عربي ولا عجمي.. إلا بالعمل والتقوى.. من الذي أخذك غنوة وحملك ما نرى؟

- الأمير جعفر.

- الأمير جعفر؟!!

- نعم ولي العهد، الأمير جعفر.

- متى حدث ذلك؟

- فعلها يوم الاثنين في الأسبوع الأول من الشتاء الماضي، أثناء ذهابه لصيد الغزلان جنوب المدينة.

يهوى الأمير جعفر بالفعل صيد الغزلان، نعم.. قد ذهب يوم الاثنين في الأسبوع الأول من الشتاء، وجاء ودماء على ثوبه، وثلاثة غزلان يحملها أهداها إلى والده الشريف علي.

أمر الشريف العادل، حارسه، أن يأتي له بالأمير جعفر، مربوط اليدين، ليلقى شنقه، وإن رفض المجيء معه، فليأت برأسه.

- مولاي الأمير جعفر؟
- أهلاً بك يا حارس، ما لجبهتك يملؤها العرق، ما بك
يا رجل؟!
- أرسلني الملك في أمر.
- وما الأمر؟
- أن آتي بك مسلسل الديدن والقدمين استعداداً لشنقك، وإن
رفضت أتّ برأسك.
- أتقتلني يا حارس؟
- هذا ما أمر به الملك العادل.
- ولماذا؟

حكى له الحارس ما جاءت به الجارية ياسمين، فعرف الأمير
مكيدة المارية اليهودية.

"قبل العملية يجي بربعمية حول".
أرسل هواره، عبدهم شليطة، ليأتي لهم بالويكة.

لم يستأنن حين دخل زرع ناس حجازة، جنى ما جناه، هردم الزرع، وقبل خروجه ضبطوه متلبسًا، سألوه فتطاول، ضربوه ضربًا مبرحًا، ظل ينزف من فمه، حتى مات.

- الحقوا يا هواره، ناس حجازة قتلوا عبدكم.

ونزل هواره، يطيحون في عرب حجازة ضربًا بالشوم، أجبروهم على ترك بيوتهم، أخرجوهم مُهجرين، ولحق بهم الشيخ امبارك، قضى معهم ليلي أربع في صقيع الجبل، حتى أصابته الحمى، فحملوه معهم مريضًا، إلى أبناء عمومته في قوص.

تابعهم هواره من بعيد.

في الطريق، مات الشيخ امبارك.

تقدم هواره ليأخذه ويدفنه في القرية، فرفض أهله، وزاد الخلاف، حتى كاد يعيد الضرب والحرب، لولا اقتراح رجل مسن، أن يضعوه على ناقته، وفي المكان الذي تتوقف فيه، يكون قبره.

اختار الشيخ امبارك الحجازية، توقفت ناقته آخر القرية، وجدوا قبره مفحوتًا، بجوار قبر عزيزة التي أحبها وأحبته.

وتشارك المتحاربون في بناء مقام للشيخ امبارك، بجوار مقام الشيخة عزيزة، وبعد أن انتهوا، سجلوا تاريخ السنة، 1626 ميلادية، 1046 هجرية.



أحب الشيخ امبارك عزيزة.

كانت تذهب إليه كل يوم، تقضي معه النهار، حتى إذا حل الليل، جلست عزيزة مع الشيخ امبارك على أحد جرون القمح أو الفول، يطبخون ويصنعون الشاي، ويتسامرون، دون أن تصيبه النار بأذى.

وكثر اللغو، والغمز واللمز.

اتهمها ناس أب ناصر، أهلها، صراحة في الرجل، حبسوها في البيت، عينوا على حجرتها حارسًا، غير أنهم حين خرجوا، وجدوها في الخارج معه.

لم يفهموا دلالة ذلك.. فذهبوا يقتلوها.

سكن الشواف، أطراف الغرب، وتزوج حمادي جارية وسكن أطراف الشرق، وسكن ابن عمهم أبو دياب، الغرب، فسميت البلد على اسمه، بعد أن تدخلت الحكومة، وعرف العثمانيون الأتراك، الصعيد.

في مولد الشيخ امبارك، يأتي أهل حجازة من قوص، كل عام،
ينبحون الجديان، يطبخون في حلتة الكبيرة، وياكلون.

الحلة في الأساس هي لسيدي عبدالرحيم القناوي.

يوماً ما، ذهب لصوص ليسرقوها من مقامه، رآهم سيدي
عبد الرحيم، لم يرد أنيتهم، فقط زعق: حلق يا امبارك.

وحلق امبارك، وأخذ من اللصوص الحلة، وحين ذهب ليعيدها
إلى صاحبها، قال صاحب: هي لك.

عاد الحارس للملك علي العادل، وعمامة وثوب الأمير جعفر في
يده، ملطخة بالدماء، كانت هذه هي المرة الأولى التي يكذب فيها
على الملك، قال له إنه قتل الأمير جعفر، دون أن يقتله.

لم يكن عمر الأمير تجاوز بعد العشرين، حين هاجر، تاركاً أهله
وبلده، تنقل من بلد إلى آخر، وبعد أسابيع من الرحال المستمر، وصل
إلى اليمن، وفي إحدى حدائقها، جلس يستريح ويريح معه رفيقة
الرحلة والارتحال، فرسه، فنام قليلاً، غير أن هناك ما أيقظه.

- عُذ يا لعين، لا يصح للحميري أن يعتلي المهرة الشريفة.

كان حصاناً يحوم حول فرسه، رفته كلما اقترب وشمشم في مؤخرتها، فوقف الأمير جعفر يطرده بسيفه، حتى ظهر أمامه فارساً في نفس سنه. يسأله:

- من تكون؟

- غريب، أو عابر سبيل.. ومن أنت؟

- أنا صاحب هذه الحديقة.

- ومن يكون في اليمن صاحب هذه الحديقة؟

- أنا الزناتي.. خليفة!

كان الأنمة يرددون في المساجد: "إلهي أيها الحميد المجيد أكرم خلق المسلمين، سلطان الخافقين، وسيد الأرضين"، حين نزل مندوب الأتراك أبو دياب، ليحصل الإتاوات، ضريبة الميري للسلطان، والكشوفية للبلك حاكم إقليم جرجا، على الجميع أن يدفع، من معه ومن ليس معه، رضاءً أو غصباً.

- هل يمكن أن تأتي معي لأدفع لك ما تريد.

وكيف يدفع والترع والمصارف مهملة، يطهرها الناس على

نفقتهم الخاصة كلما استطاعوا؟! كيف يدفع وقد قل إنتاج الأرض؟، كيف يدفع والطاعون يحصد الأرواح؟ كيف يدفع والناس تحت رحمة المنجمين والعطارين والحلاقين؟

قتل هواري مندوب الترك .. متمرذاً على الدفع.

في اليوم التالي، نزلت حملة عسكرية تبحث عن القاتل العاصي، تعبت خراباً في الزرع يميناً ويساراً، دخلوا بيته، وحين وصلوا النسوة، سلم نفسه، جروه إلى استراحة الوالي عند قرية أولاد عمرو، تركوه مسلسللاً لأيام نون أكل وشرب، حتى جاء الوالي لينظر شنقه بنفسه.

شنقوه، سُمي سلساله ناس العاصي.

عادت القوات التركية مرة أخرى، تبحث عن ناس العاصي، وكانوا قد تركوا البيوت والأرض، اتجهوا ناحية الجبل، مروا على الزنيقة، حتى وصلوا الشيخ سلامة.

كان الشيخ سلامة جالساً يلعب السبيجة مع مريد، حين وقفوا أمامه يسئلونه عن الهاربين، فأشار إلى خلوته، وحين دخلوها لم يجدوا سوى الققط.

عادوا، وفي الطريق.. لم يجدوا أحداً لياخذوه، اختبأ الرجال

والنساء في أحضان الجبل والزرع، لم يجبوا أحدًا سوى قاسم.
كان عائدًا من زرعه، حاملاً شيلة البرسيم على كتفه، لم يكن
يعرف عن القاتل وأهله.

عانت الجارية ياسمين كثيرًا أثناء ميلاد طفلها، عاشت أيامًا صعبة،
تعهدت فيها إن أخرجها الله سالمة، أن تعيد الحق لصاحبه.

وبعد أن أنجبت، واشتد عودها قليلاً، هربت من قصر المارية،
وذهبت إلى الملك العادل الشريف علي، وتحت قدميه بكت كثيرًا،
بعد أن اعترفت له بالمكيدة التي دبرتها اليهودية من أجل الانتقام
منه ومن ابنه الأمير جعفر.

وبعد أن ظهر عليه الندم، وقف حارسه الأمين، ليعترف هو
الآخر، بعدم قتله الأمير جعفر.

تبدل حال الملك من ندم إلى فرح، وأعلن ثلث تونس لمن يجد
الأمير المهاجر.

وخرجت الرسل من قصر الملك العادل علي، إلى قصور ملوك

العالم، بحثًا عن الأمير، ذهبت إلى مصر وليبيا والأردن وبلاد نجد، والعراق وبلاد الشام، حتى وصلت إلى اليمن.

وفي اليمن، كانت الرسالة في يد من استضاف الأمير جعفر سبعة أشهر، من قاسمه فيها مكان المبيت، وصواني الطعام والحكايات.

في يد الصديق الزناتي خليفة.

منذ أن هرب من فاو، وعاش في أبو نياب، يعمل مع أهلها في الزراعة، وفاوي لا تجده جالسًا إلا مع صديقه قاسم.

ومنذ القبض على قاسم، وفاوي يتتبع خطوات محاكمة صديقه من بلد لآخر، حتى وصل معه باب سجن قنا العمومي.

فدخل قاسم السجن، وجلس فاوي على باب السجن، نقاقل، يُصلح الأحذية.

مليم، اثنين، عشرة، كل ما يتحصل عليه بعد أكله، يضعه فاوي في الأمانات باسم قاسم.

عشر سنوات، لم يخرج فيها قاسم من السجن، ولم يترك فيها
فاوي باب السجن.

وقف كل منهما أمام الآخر، للحظة، قبل أن تتلاقى أكتافهم
طويلاً، وبعد أن انتهيا أخذ قاسم فاوي من يده، ونزل به أبو دياب،
أعطاه ثلث ماله وثلث أرضه، وثلث مندرته، وثلث بيوته.

كانا صاحبين في طريق العودة، حتى وصلا تونس التي
استقبلتهما بالزغاريد والأغاني والرقصات الشعبية.

احتضن الملك العادل، ابنه الأمير جعفر، احتضنه طويلاً، وبعد
أن انتهيا، رحبا بالصديق الجديد، الفارس الشاب الزناتي خليفة.

وحصل الزناتي على ثلث أراضي تونس، ثلث الأرض وثلث
البيوت.

أحب الزناتي تونس، أحب عيون الماء التي تخرج من الجبال
فتشفي المرضى، وغروب الشمس وسط البحر الذي يشفي العيون،
أحب بيوتها البيضاء، وقباب مساجدها الخضراء، وأثار الرومان،
أحب غزلانها وأسماكها، وطباع أهلها.

عاش فيها خمسة عشر عامًا وهو يحلم.
حلم أن يصنع منها مملكة كبيرة.

الحلقة العاشرة

يا دنية الله
كان ليكي صاحب حلو،
لكن يا خسارة، فوتيه
ليكي طعم كيف الشهد،
للي تحبيه.

يشير الطريق إلى قرب الوصول، على البحر.. تهيم النوارس
لعباً، تتسلل النسانم إلى أنوف الرحالة، بعد أن مرت على الماء،
وداعبت خضرة الجبال، الخضرة التي تأكل اللون الأصفر، وتفرض
سيطرتها على الجبال.

نغد طعامهم منذ ثلاثة ليالٍ، ومياهم منذ ليلة.

بقي الفرسان الأربعة مستلقين على شاطئ البحر، مبللة ملابسهم
وقعدانهم، حتى اعتدل أبو زيد، يحث أولاد أخته، على استكمال
الرحيل.

وبعد نصف نهار، ظهرت القباب الخضراء، يحيطها سور حجري

كبير، ذو سبعة أبواب، إنها تونس، نعم.. تونس الخضراء.

اجتازوا السور من باب البحر، في صحبتهم الإنهاك، ملابسهم غريبة عن ملابس أهل هذا البلد العامر بالحدائث، مبانٍ حجرية بيضاء، أبواب البيوت مطلية بالأزرق، ينظرون حولهم، حتى يفيقوا، على صوت مرعي يذكرهم: أنا جانع، نحن جوعى يا خال، لم نرزق الزاد منذ يومين، وصرقنا كل ما نملك من مال.

يهز رأسه ابوزيد، ثم يخلع عباءته، ويفك أزرار قميصه، وهو يحدث أصدقاء الرحلة: لنبحث عن تاجر للملابس البالية، نبيع له هذين، ونشتري طعامًا، نأكل، ثم ندبر حالنا.

- سلم قميصك يا خال، لا عاش ولا كان من يلبسه بعدك.

- عشت يا يحيى، لكن علينا أن ندبر أمر جوعنا الآن.

- لن يقدر أحد قميصك يا خال، (يشير إلى ملابس الناس الزاهية)، كما ترى، ربما لا نجد من يشتريه.

ما الحل إذن؟ لا يصح لهم - وهم الفرسان، الأحرار - أن يتسولوا طعامهم من المارة.

تحسس يونس متاعه، غرس يده بداخله.

- معي عقد الأميرة السماء، ثمنه يكفي لأن نأكل ما بقي من العمر.

يلقى اقتراحه استجابة من يحيى ومرعي، وتردداً من أبي زيد.
- أرني إياه، أرني.

أبوزيد يتأمله، أغرورقت عيناه وهو يشاهد كل الحكايات التي سمعها عنه.

في زمن بعيد، أغار جيش من بلاد تعبد الأصنام، على بلاد الحسب والنسب المسلمة، فأرسل ملكها يطلب دعم السلطان نائل، حاكم بني هلال.

كان الأمير سرحان شاباً، في مقتبل العمر.. ينتظره كرسي الحكم. ولكي يكتمل استحقاقه للحكم، هو في حاجة لأمرين، امرأة تحصنه، وتحفظ شبابه، ومعركة.. تُكتب باسمه.

غير أن الأمير سرحان، لم يكن شغوفاً بالزواج، لم توقعه أي من بنات بني هلال، كانت والدته تداعبه كثيراً: "لن تعجبك سوى بنات بلاد الحسب والنسب".

وها هي بلاد الحسب والنسب، تطلب دعم والده، وها هو والده يرشحه لقيادة الجيش، وخوض المعركة.

وخاضها، وبعد جولات عدة، وحد فيها جيشه مع جيش بلاد الحسب والنسب، وانتصر، اقترح عليه الملك يومها، أن يأخذ كل الغنائم، غير أن الأمير سرحان طلب شيئاً آخر، طلب ابنته للزواج.

ولم تكن بلاد الحسب والنسب، تزوج بناتها للقبائل الأخرى.

غير أن الملك وافق، فمن جلب النصر لقومه، يصبح منهم، لكنه اشترط على الأمير سرحان، ألا يرى عروسه، إلا بعد عودته إلى أرض نجد وبني هلال.

وأهدى الملك ابنته الأميرة السماء، عُقْدًا عَتِيقًا يشع نورًا كقمر مكتمل في الظلام.

وفي الطريق، بدا الأمير سرحان مفكرًا في ذلك الشرط الذي فرضه عليه الملك، تصاعدت هواجسه، ماذا إن كانت قبيحة؟

"قبل العملية، وقت هيجان البحر".

قالت له الدلالة: إنها جميلة، وجهها مثل القمر الشبعان.
في كل مرة تصف له واحدة، يلتقط عيناً، فيسألها عن أخرى..
هذه المرة أعجبه كلامها، وقد غالت في وصف جمال العروس
المقترحة.

تأخر حسن في زواجه، بحثاً عن امرأة جميلة، تجاوز عمره
السابعة والعشرين، عاشه يحلف أنه لن يتزوج إلا من يشاهد الماء
وهو ينزل من زورها.

أرسل الدلالة رسالاً، لتستطلع الأمر.

وبعد أن جاءه استحسان طلبه، ذهب حسن إلى والد العروس،
لـ"يطيب" ويقرأ الفاتحة.

ظل الناس سبعة أيام يأكلون ويرقصون في عرس حسن، لم يهدأ
الطار عن الضرب في بيت عروسه، حتى جاء الموعد المحتوم.
بعد انتهاء العشاء، ركبت الهودج، ضرب النار طوال الطريق،
وحين وصلت أمام بيت عدلها حملها أخوها وهي ملفوفة في ملاءة
على كتفه، ليدخلها بيت الوسيم حسن.

دخل حسن حجرته على زغاريد النساء، ثم خرج ثائراً.

- ليست هذه العروس. من أدخلوها سوداء، وعوراء، وبضرب.

أخذه كبار هواراة إلى جانب، اقترحوا عليه:

ادخل عليها، ودعها تبيت ليلتها، وطلقها في الغد.

- لا يمكن.

- لقد رأيت وجهها يا حسن، وفي رؤية الوجه نصف الشرف.

- لا يمكن.

ركب حسن دماغه، وأصر أن تعود على اليهودج الذي أتى بها.

في الصباح اجتمع وهواراة وشلحوه. لا يحق له حمل سلاح، يدفع
وداراربه ثمن حماية ناس النقر له ولهم، لا رأي له في الشورى،
لا مكان له في الحرب.

كل ذلك، لأنه رآها.

باغت خيمتها، ليلاً.. وقت استراحة السفر، كانت ملاكاً نانماً
يسحر القلب ويأسر العقل، تحمل جمال بنات الحسب والنسب، وقف

الأمير سرحان يتأملها، وقبل أن ينكشف أمره، بدخول الجارية، كان قد أخذ من ريحتها، العقد الذي ترتديه.

هائم، عاشق، في الصحراء يسير بعيداً عن خيام جيشه، وحين أفاق لأمره، انتبه لنقضه الشرط، في وقت أغار عليه مجموعة من قطاع الطرق، اجتمعوا عليه، حتى أسروه. كانوا تجار رقيق أفارقة، ممن يعبرون البحر، يغيرون فيأسرون، وحين يعودون.. يبيعون أسراهم، كعبيد.

وفي الوقت الذي استيقظت فيه الأميرة السماء، تبحث عن عقدها، كان الفرسان المرافقون للأمير يبحثون عنه، وكان هو مقيداً بسلاسل، يُباع ويُشترى في سوق الرقيق.

البحث عن الأمير، يسبق البحث عن العقد.

تنكرت الأميرة السماء في ملابس الرجال، لتشارك في البحث، بطريقتها، عن زوجها الأمير، تاركة قلبها يقودها في الصحراء، حتى أوصلها إلى شجرة.

على جزع الشجرة، كان اسمها محفوراً، في بيتين من الشعر. تحوّل الأمير سرحان إلى عبد عند سيد ظالم في بلاد الحبشة، والعبودية للحر موت، وهو يطلب حرّيته ولم يكن معه أي مقابل..

سوى العُقد، غير أن السيد أخذ العقد ولم يعطه الحرية، فذهب يشكوه إلى قاضي المدينة.

- ترحيل.

في سجن الخليفة، كل يوم يحمل العساكر الخبز في براميل، يحذف الصول الخبز من الباب، كل واحد منا يصيد رغيفاً، يقلب الصول نصف صفيحة الجبنة على البلاط منتصف الحجز، لناكل.

ناكل من الأرض.

منذ أن وقع الضابط على الورقة، تحوّلت الساعات الاثني عشرة التي تحتاجها أتوبيسات هيئة النقل القديمة، لتتنقلك من العريش إلى قنا، إلى 12 يوماً، كعب داير. كل شيء تم ببساطة، كل من كان في البيت ليلتها كتب اسمه.. كل سيخرج من القسم التابع له، كل تابع لمركز دشنا.

من قسم بنر العبد إلى ثاني العريش، ومنه إلى أول، ثم إلى الإسماعيلية.

كلما نزلنا أو ركبنا سيارة مطيعين مكبلين.. نُضرب بالخرزان.

في الترحيلات إذا كنت مُدانًا، تُقيد يدك بيد زميلك، أما إذا كنت في مرحلة الاستعلام، تُقيد خلف ظهرك، ومع "خلف الخلف" تتمنى الإدانة في لحظات يبدو فيها الموت أهون. السجن ثقيل، وكثيرًا ما يوصلك إليه حلم.

في ملابس الفارس، بقيت الأميرة السماء، تحت الشجرة، حتى جاء الأفارقة، وخطفوها كما خططت، وفي سوق رقيق الحبشة، تم بيعها كعبد اشتراه، قاضي المدينة. كشفها ابن القاضي، كشف أنها فتاة، وليست رجلًا. وجلس القاضي يسمع حكايتها. والدها، وشرطه، وعريسها، وغياب العُقد، واختفاء الأمير. وأثناء ذهابه لدار الحكمة، في اليوم التالي، كانت أول قضية ينظر فيها، هي قضية الحرية مقابل العُقد.

أقر القاضي، بأحقية الأسير للحرية، بعد أن كشف كذب سيده،
حين سأله: كم عدد حبات العُقد؟!

لم يعرف السيد، فأجاب الأسير: تسعة وتسعون حبة، لتكون إجابته
دليل البراءة، وتأكيد على أنه الأمير سرحان، الذي كانت تتحدث
عنه، بالأمس الأميرة الشماء.

اشترى القاضي العقد من السيد، ليحصل سرحان على حريته،
وأعتق القاضي الأميرة الشماء، وأوصلها مع زوجها الأمير إلى المركب
ليعودا إلى بلدهما، بعد أن أعطاهما العُقد، هدية لزوجهما.

كنت أحلم، وفي الحلم زحام، أصوات عالية، من يركلني بقدمه،
تألمت وفزعنت، لم يكن حلماً، المخبرون فوق رءوس النائمين،
عساكر مدججة بالسلاح، وضابط.

- بطابق؟

كان الخوف يسري في العروق، الجميع يبحث عن بطاقته، من
يفتش تحت المخدة، من يبحث في شنطته المعلقة على الحائط، أو
في الجيب الخلفي لبنطاله، أو سيالة جلبابه، ومن يجدها يقف في
انتباه الخوف.

- اقف كويس يا ابن المتن.....، إنت وهو.

كانت جملته لاسعة، تخصص العرض، احمرت بسببها الوجوه، الجميع حاول أن ينفذ تعليماته بدقة حتى لا يزيد.. لكنه زاد.

- بص يا باشا إحنا مع سعادتك للموت، بس إحنا منستحملوش الغلط واصل.

كانت عروق وجه عم أحمد الحبال، تنتفض وهي ممتلئة بالدم حين قال جملته، وكان الضابط ينظر في بطاقة، بجواره أحد مخبريه يمسك بطاقات أخرى يقدم له واحدة تلو الأخرى، تحرك مخبر آخر حتى وقف خلف حبال السقايل. والضابط يسأله.

- إنت منين؟

- من دشنا.

- عندكم نسوان حلوة في دشنا.

نزل المخبر بكفه العريض على قفا عم أحمد: رد على الباشا.

ورد عم أحمد.

كان رده قويا، طغى على أصوات البيادات، والهراوات، ومؤخرات البنائق، طغى على الدماء التي تترت من بعض الأفواه.. كل ما حدث بعد رده، لم يغط على صدى صوت يد عم أحمد وهي تلمح وجه الضابط.. فتهز كل شيء فيه.

الحظ السيئ أوصلنا إلى سجن الخليفة، يوم الثلاثاء، بعد أن خرجت ترحيلات الصعيد صباح نفس اليوم. كان علينا أن ننتظر حتى السبت، ولأن العدد كان قليلاً، ألغيت المأمورية، وانتظرنا الثلاثاء التالي.

كلما تقدم القطار خطوة نحو أبو دياب، عاد اثنتان، بالكاد أستطيع أن أقف، أشعر بأنني سمكة لم تمت بعد في صفيحة فسيخ.. كل شيء كان يُباع حتى الهواء، يمكنك أن تستنشقه من شباك العربة الوحيد. خمسون جنيهاً للمرة الواحدة.

دفعها عم أحمد الحبال، غير أنه قبل أن يصل إلى الشباك.. مات.

الآن، كل هذه القصة تُباع.

كان يونس على قاعوده، مستعداً للذهاب إلى السوق، أعاد له أبو زيد العُقد، وهو ينصحه: "إياك والقصور، إياك والنساء، وإياك وسرقة العُقد".

في طريقه، مر يونس على صبايا يحملن أباريق نحاسية، يسقين عطاشى الشوارع، ساحراً يونس، خطفهن جماله، تهتز في أيديهن

أباريق المياه، يمشي بعضهم وراءه، صبية تعاكسه: "لنأت معي، حتى نطفأ حرائقنا معاً"، تتزايد حوله قهقهاتهم المائعة، أخرى تداعبه: "زوجي ذهب للصيد وتركني وحيدة، ولن أجد أفضل منك يوازر وحتي".

- استعيني بالله، فهو موازر القلوب.

ثالثة تسأله: أتركهن، وأجيني.. إلى أين ذاهب؟

- أريد الوكالة، أبيع واشتري.

- الوكالة ملينة ببر اغيث التجار، تعال معي وسأشتري منك كل ما تريد أن تبيعه، وأهديك كل ما تريد أن تشتريه.

يفكر يونس في نصائح خاله، وهي تقدم إليه صدرها، يرسم على وجهه الجدية، يضغط بقدميه على جملة، ليزيد من سرعته، يدخل دروبًا مختلفة، باحثًا عن الوكالة، وفي الدروب صبايا، يلتفتن إليه من شبابيك البيوت، يحطنه بنظراتهن أينما اتجه، حتى وصل إلى الوكالة، كان التجار يلمون بضائعهم، ويغلقون دكاكينهم، البيع والشراء انتهى، الوقت عصر.

لم يسمع له أحد، لم يروا حتى بضاعته، أشار عليه أحدهم أن يذهب إلى دكان جعفر الدلال، فهو يعمل طوال اليوم، ولا يغلق الدكان.

دخل يونس دروبًا أخرى، تشاغله الصبايا: "فات وشغل بالي"،

أخرى تدق على شباك بيتها، لتشد انتباهه، ثالثة تلقي المياه في طريقه لتعطله عن المرور، عجوز تراه فتداعبه: "تعال يا جميل، استضفك عندي، لا يقلقك الشعر الأبيض، سنصبغه".

خرج الدلال من دكانه على أصواتهن، ليبعد الصبايا عن الزائر الغريب، معلناً لهن توقف البيع والشراء.. و: أهلاً وسهلاً، ماذا يريد الغريب؟

- معي عقد، جواهره نادرة، لا مثيل له، أريد أن أبيع.

- (يسخر الدلال): أو ليس عينا على السيف الذي تحمله، أن تبيع عقد نساء.

ورد يونس بإخراج العقد من لفافته، ليخطف عيني جعفر الدلال:

- أنا أخطأت، ومدين لك بالاعتذار، أرني.. أرني.

تفحص الدلال العقد جيّداً، توقف كثيراً أمام جماله وقيّمته وهو يفكر، أي عنق يستحقه من صبايا تونس؟.

- عُقدك يكرم لسعدة بنت الزناتي خليفة.

اصطحب الدلال يونس، واتجها إلى قصر سعدة، خبط الدلال

على القصر، رآه العبيد، سأله واحد منهم بعد أن فتح له الباب: ما الذي أتى بك يا دلال سكن النساء؟.

كان يونس واقفاً بعيداً، حين حدثت مشادة بين الدلال وبين العبيد

على الدخول، تطورت لضرب العبيد للدلال، في الوقت الذي كان

العبد المخنث ربحان، يقف بجوار سيدته ومخدومته الجميلة سعدة:
"الحقي يا سيدتي، العبيد يضربون الدلال على الباب".

توقف العبيد عن ضرب الدلال فور نزول الأميرة سعدة من
أعلى القصر، أشارت لهم فابتعدوا عنه، لتسأله: "ماذا أتى بك؟".

- جنت أبيع لك عُقد جواهره نادرة، لا يليق بأميرة غيرك في
تونس.

خطف العُقد عيني سعدة، بمجرد أن أعطاه لها جعفر، بهرها.
- لكن، ليس معي مال الآن، سأعطي صاحبه حصاد ثمانين
فداناً، مزروعة بالياسمين والعنب والتين.

- يا سيدتي، أنا رجل دلال، لأشاور صاحب المال، وأرد على
عرضك.

وعدته سعدة، إن نجح في إتمام هذه البيعة بهذه الطريقة، أن
تمنحه نصيب تجارته مضاعفاً، وفوقه كسوة لأولاده من الحرير.

خرج جعفر، ومعهُ العُقد، ليجد الفارس الغريب قد تملكه التعجل،
طرح عليه العرض محاولاً إقناعه، غضب يونس من طريقته، وضع
يده على سيفه: "وكيف أبيع الجواهر بعنب وتين على الشجر، هات
العُقد يا دلال، حتى لا أفصل رأسك عن جسدك".

هدأ جعفر الدلال من روعه، عارضاً عليه شارياً آخر.

- عَقْدَكَ يَكْرَمُ لِعَزِيْزَةِ بِنْتِ السُّلْطَانِ.

اعتذر الدلال لسعدة عن تراجع صاحب العقد عن بيعه، ليفلت من رغبتها في اقتنائه، واصطحب يونس إلى قصر الأميرة عزيزة. وحين وصلا إلى القصر، دق جعفر الباب.

فتحت.

بدا المكان فارغاً، كرسيان في المنتصف، طاولة خشبية وضعت عليها الألوان، وأخرى صغيرة عليها جرامافون، أسطوانة قليلة، ورواية.

لوحات مرصوفة على الأرض، ولوحة بيضاء على الحامل، لم يطلها اللون بعد.
- لطيف مرسمك.

- حرصت أن يكون في نفس العقار الذي أسكن فيه، لأكون معه.. تسمع أم كلثوم؟
- أسمع.

تضبط صوت الجرامافون، ليكون في الخلفية.

- أحب الموسيقى الكلاسيكية، تدخلني في عالم يختلف عن الواقع، الموسيقى تهينني للعطاء. قبل أن أترك لمشاعري الريشة، تفعل ما تشاء في اللوحة. ربما في أي شيء. أووه، نسيت: ماذا تشرب؟

- ممكن قهوة.

اتجهت ناحية المطبخ، مسرعة، ثم توقفت فجأة، لترسم على وجهها ملامح طفلة، هزت رأسها وهي تنظر إليّ...

- لا أجيد صناعة القهوة التركي، والخادمة اليوم في إجازة، هل تساعدني؟

توقفت طويلاً، أمام وجهها ونحن نشرب القهوة، توقفت مثلي دون أن نتكلم. مددت يدي لألتقف الرواية الموضوععة على الطاولة، كان في منتصفها قلم رصاص، وخط تحت جملة وحيدة: "لا أطلب من الله أن يجنّبني المصائب، أطلب إليه فقط أن يجنّبني القنوط"^(*).

(*) الجملة من رواية "ليون الأفريقي" للكاتب أمين معلوف.

عزيزة قالت: يا يونس
عليك فـ الغـرب، دلوني
لما طال غيابك يا يونس
أتوا المداليل ودلوني
بيمين ما أملكك يا يونس،
لـ أخلي الهوا ينسـاك
وأركبك قصر عالي،
وأخلي البيبان تنسـاك
بيمين ما أنسـاك
لو عـ القبر، دلوني.

شكر خاص

عائلة الريس علي جرمون

(الريس محمود رحمه الله، هراس، علي، ناصر، والريس عدلي)

وعائلي

(رانيا، وسلي، وذات)

وأصدقائي

(حازم الحديدي، ياسر أبو جامع، أحمد خالد، أشرف يوسف،

نهى سعداوى، محسن عبد الستار، هيدرا جرجس .. وعزيزة

بنت سلطان).



المؤلف في سطور

أحمد عطا الله

صحفي بمجلة الإذاعة والتلفزيون، شاعر وكاتب، ومعد برامج، وباحث أفلام وثائقية، وُلد في 10 نوفمبر 1980، في محافظة قنا بصعيد مصر، حاصل على ليسانس الآداب في الصحافة من جامعة جنوب الوادي 2002، معظم أعماله تركز على التحقيقات الإنسانية ورصد القصص الواقعية والمثيرة للمجتمع المصري، وهو ما كان بارزاً في كتابه "الناس دول - حكايات من لحم ودم" الصادر عن دار "العين" 2011، والقصة الحقيقية "مريم.. مع خالص حبي واعتقادي"، التي لاقت نجاحاً بصدورها عن دار "المصري" في 2013.

من دواوينه "بتضحك لما أكون غائب"، دار "كتابي"، 2012.

"عملت لسنوات على أن أكون مبيض محارة، غير أن هناك مشهداً
غير من الأمر، وقفت فيه أمام مكتب شؤون الطلاب بكلية الآداب
بسوهاج، سخر مني الموظف حين سألته عن كيفية استكمال أوراق
الالتحاق، أشار إلى جداول امتحانات الترم الأول التي تكسو الجدران،
تركت الشباك، ودخلت عليه حجرة عمله، وأمامه بالضبط، قلت له،
اختر لي القسم الذي التحق به، لأنني لا أعرف! هو من اختار لي أن
أدرس صحافة، أنا لم أَدْخُل.
- دون رغبة منك؟
- تولد بعد ذلك الرغبات".

"عَرَبٌ مَالٌ" .. رواية تأخذك في سفر شائق بين زمنين، لتراقب أبا زيد
الهلالى وأولاد أخته.. وأحمد عطا الله وصحبه، مع الجازية الهلالية
ويامنة أم إبراهيم القناوية، بين برّ تونس وبرّ مصر، بين الصحراء
وضفة الوادي، كل في رحلته وتغريبته التي لم يعد فيها كما كان.
"عَرَبٌ مَالٌ" .. بحث وسيرة ومغناة. ينقل فيها عطا الله ما بلغه من
السيرة عن علي جرمون، ويشاركنا مساحاته الخاصة بما يشبه
المحاينة. من يعرف عطا الله بالف خلطته، ومن لا يعرفه، الفرصة
مواتية لاكتشاف قصّ بأسلوب مبتكر. بمدك فيه الصحفي بالوثائق،
ويشدك الروائي لتتابع الأحداث، ويخلق لك الشاعر عاملاً غير مالوف
يايقاعه وشجنه.

